

روايات مصرية للجيب
40
وراء الباب المغلق
ما وراء الطبيعة
Looloo
www.dvd4arab.com
عدد خاص

مقدمة

مرحباً بكم..

جميعكم يعرف تلك العادة السخيفة التى يصعب أن أتخلى عنها ، ألا وهى تقديم حلقة رعب كلما فرغنا من عشرة كتيبات ، وهى عادة لا أجد لها تفسيرًا ، وككل العادات الضارة غير ذات التفسير يستحيل أن أتخلى عنها ..

هذه هى حلقة الرعب الرابعة .. وهى كالعادة مجموعة من القصص القصيرة ، والقصيرة جدًا تتحدث جميعًا عن موضوعى المفضل : الرعب ..

فى هذه المرة نناقش جانبًا من الرعب ، لا يختلف عليه اثنان أو ـ كما يقول أجدادنا ـ لا تتناطح عليه شاتان ، وهو الرعب الذى يكمن خلف باب مغلق ..

ما الذى ينتظرنا خلف الباب المغلق ؟ ما الذى سيحدث لو مددنا أيدينا المرتجفة إلى المفتاح ، ثم إلى المقبض ، وسمحنا لفضولنا الإنسانى أن يرتوى ؟ هل نعود أحياء ؟ هل نعود سالمين ؟ هل تبقى بحلوقنا

قوة تسمح لنا بسرد أى هول رأيناه ؟ كثيرون تساءلوا .. وكثيرون لم تبق لهم حلوق قادرة على الكلام بعدها !!

ها أنتم أولاء حولى .. وها هى ذى النار وجلستنا المعتادة حولها ، وبعض أقداح الشيكولاتة الساخنة طبعًا ، والشوق فى العيون اللامعة ، أدعو الله ألا يتحول إلى خيبة أمل بعد انتهاء القصة ..

واربوا هذا الباب ، ولكن تأكدوا من أنه لن ..

ينغلق !!

آى !!

لا عليكم ! إنها أمسية طويلة ولربما وجدنا المفتاح بشكل ما فى نهايتها ، أو لربما سمع استغاثتنا أحدهم بالخارج .. لا تحملوا همّ الخروج ، ولنصغ الآن إلى العجوز (رفعت إسماعيل) وهو يحكى لكم حلقة الرعب الرابعة ..

* * *

وراء الباب المغلق

كنا سبعة .. تباينت وجوههم وثيابهم وأهواؤهم ، لكننا اجتمعنا فى تلك اللحظات التى لا تنسى ..

كنا سبعة .. أربعة رجال وثلاث نساء ، وحاول الرجال أن يتصرفوا كما يليق برجال مهذبين ، لكن ظروف الرعب التى مررنا بها جعلتنا نفقد ميراث الحضارة فى لحظات ، وصارت قواعد اللياقة ترفًا لا يتحمله الموقف ..

كنا سبعة .. وهو رقم تفاعلتْ به الثقافات على أنواعها ، لكننا تمنينا للحظة لو ينخفض هذا الرقم قليلاً .. ولهذا أسبابه ..

كنا سبعة .. لكن الاطمئنان لم يكن ثامننا ..

* * *

بدأت القصة فى خريف عام 1971 ..

والفصول فى مصر قد تتشابه ، وقد تختلط ، لكن شيئًا واحدًا يميزها هو الرائحة .. رائحة الأسفلت المبتل فى الشتاء .. رائحة حبوب اللقاح وزهور

البرتقال القادمة من أرض محروثة : هذا هو الربيع ..
رائحة العرق ورائحة أنسام الليل الرحيمة فى الصيف ..
لكن الخريف له روائح عديدة .. سيحدثك التلميذ عن
رائحة ورق تغليف الكتب ، ورائحة الممحاة فى الحقيبة
الجلدية الجديدة .. وسيحدثك الموظف عن رائحة
(الجوافة) التى لا تفارق الثلاجة .. وستحدثك المراهقة
دامعة العينين عن رائحة الحزن ذاتها .. وسأحدثك
أنا عن رائحة المساء المبكر ..

الخريف ! يا لعذوبته .. يا لقسوته !

بدأت القصة فى خريف عام 1971 ..

اتصل بى صديق قديم هو الدكتور (جابر إبراهيم) ،
يدعونى إلى قضاء سهرة الخميس فى داره بـ (المقطم) ..

قلت له إننى سأمرض يوم الخميس ، وإن صحتى
لم تعد تحتمل السهر ، لكنه انفجر ضحكًا :

ـ « يا (رفعت) ! يا لك من مخبول ! أنت تعرف
أن سهرة فى دارى لا تعنى سوى بعض المناقشات
المثقفة الذكية ، وربما بعض قطع (الجاتوه) مع
الشاى .. لا شىء مما تخاف القدوم لأجله .. »

كدت أصارحه أن هذا بالذات هو ما أخاف القدوم
لأجله .. سيكون هناك كثير من الأوغاد الثرثارين الذين
يتكلمون ويضحكون بصوت عال ، وكل منهم يحاول
أن يبرهن للآخرين أنه بخير وهم ليسوا بخير ..

فى النهاية قبلت كى أخرسه ، وإن كنت أعترف أن
أسماء بعض الموجودين بدت لى مغرية بالتأكيد ..

نظرت لنفسى فى المرآة ، وقلت :

ـ « ألن تكف عن الذعر يا (رفعت) ؟ متى تصير
حيوانًا اجتماعيًا ، وقد كاد العقد الخامس من عمرك
ينتهى ؟ » .

لكن الإجابة كانت جاهزة لدىّ :

ـ « لن أصير حيوانًا ، اجتماعيًا أبدًا .. فمن
رابع المستحيلات أن تلقن كلبًا عجوزًا حيلة جديدة
كما يقول الإنجليز .. »

ولكن من هو (جابر إبراهيم) ؟

* * *

لا أعرف الكثير عن هذا الرجل .. أعترف بهذا ..

إنه أستاذ جامعى .. يقوم بتدريس الجراحة لطلبة
الطب ، ولديه عيادة هى نافورة مال فى واحد من

أرقى أحياء القاهرة - ولن أذكر الحىّ طبعًا حتى لا أمنحه دعاية مجانية - وهو متأنق جدًا ، ولسبب ما صار من نجوم الإعلام الحقيقيين الذين يندر أن تخلو صحيفة من صورة لهم ، ولا بد من أن تراه مرة أو مرتين أسبوعيًا فى التليفزيون ..

نشأت بيننا صداقة ما ، من طراز سطحى لا يخلو من المجاملة .. إننى رجل كثير المعارف ، قليل الأصدقاء كما تعرفون ..

ولم أتخيل قط أن علاقتنا يمكن أن تكون أعمق من هزّ الرأس من على بعد كلما التقينا ، وإخبار مرضى تضخم الطحال - الذين ينوى استئصال طحالهم - أن الجراحة لن تفيدهم بشىء ..

فكيف أمضى أمسية عند هذا الرجل ؟

لكن الإغراء كان قويًا كما قلت .. فالرجل يملك فيلا فى (المقطم) يقال إنها ، أروع منظر يمكن أن تراه فى حياتك ، وقائمة المدعوين لا بأس بها ، تتضمن أسماء مثل (محمود عونى) الكاتب الصحفى الشهير ، و (هيام) الممثلة الشابة بارعة الحسن ، ومطرب شاب نسيت اسمه يغنى مثل (عبد الحليم حافظ) دون توفيق كبير ..

لماذا أذهب إذن ؟ لأن العمر يمضى ، وأنا لم أر كل شىء بعد .. ما زالت هناك أشياء أخرى غير الزومبيين والمذءوبين تحتاج إلى أن أراها قبل أن أغمض عينى فى رضا ، وأموت ..

* * *

وفى الثامنة من مساء الخميس ، دخلت سيارتى العتيقة فى حياء وتهيب ذلك الممر المحاط بالأزهار عند مدخل الفيللا .. كانت السيارات الواقعة تشى بالثراءِ - حسب مقاييس هذه السنة - وشعرت بالفعل بأن عجلات سيارتى ترتجف فى خجل .. لحسن الحظ كنت أرتدى البذلة الكحلية التى تجعلنى فاتنًا ، وقد سكبت على نفسى نصف زجاجة من (الكولونيا) التى أهدتها لى ابنة أختى فى عيد ميلادى العاشر ..

فتح لى الباب خادم نوبى يرتدى طربوشًا وحزامًا عريضًا من نفس اللون فوق جلبابه الأبيض ، وبأدب اقتادنى إلى قاعةٍ فسيحة تتناثر فيها الأرائك فى فوضى منظمة .. ثمة موسيقا راقية قادمة من مكان ما أو إضاءة عادية ساطعة كإضاءة حفلات العُرس لا يميزها شىء ..

عدد من القوم يجلسون أو يقفون ، غارقين فى محادثات فاتتنى بداياتها بالطبع .. وسمعت من تقول لى فى تهذيب :

ـ « مرحبًا يا د. (رفعت) .. أنا (ناهد) .. »

استدرت مرتبكًا لأجد سيدة فى منتصف العمر ، تضع على رأسها جُمّة صفراء عالية لامعة كأنها من الخزف ـ وهى المودة فى هذا الزمن ـ وفيما عدا هذا لم تبد لى مجنونة أو بلهاء ..

ـ « أنا حرم الدكتور (جابر) .. كيف عرفتك ؟ وهل يخفى القمر يا دكتور ؟ .. أنت اليوم أشهر من نار على علم ، ولا يمكن إقامة حفل يضمّ نجوم المجتمع دون أن تدعى إليه ! »

بحثت عن منديلى لأمسح قطرات العرق على صلعتى ، وقلت :

ـ « هذا شرف لى .. وأين هو ؟ »

ضحكت فى مرح ضحكة خنفاء أرستقراطية :

ـ « بعلى ؟ ليس هنا .. ثمة جراحة عاجلة جعلتهم يستدعونه .. إنه لا يكف عن هذه اللعبة السخيفة : هجرنى وحدى دون صديق ولا معين .. لكنه سيعود بالتأكيد .. لا بد أن يعود فلا دار له إلا هنا .. »

وببساطة جذبتنى من كمّ سترتى تقتادنى إلى حيث اجتمع عدد من ضيوفها .. وبأناقة كالتى تراها فى السينما قاطعتهم وأجرت عملية التعارف :

ـ « صبرًا يا شباب .. معى ضيف خارق للعادة هنا هو د. (رفعت إسماعيل) .. قاهر الأشباح ! »

بدا الغباء على الوجوه ، فأدركت أن سمعتى لم تصل إلى هنا .. فحاولت أن تساعدهم على التذكر :

ـ « (بعد منتصف الليل) ! البرنامج الرهيب الذى منعته الرقابة ! لقد كان د. (رفعت) هو ضيفه الدائم .. »

أخيرًا تذكر واحد أو اثنان شيئًا كهذا ، لكنى لاحظت فى ضيق طريقتها فى تقديمى ، وهى طريقة لم تخل من السخرية .. سخرية خبيثة جدًا يصعب الإمساك بها .. وأدركت أن مظهرى صدم هؤلاء القوم .. وأنهم يكتمون فى أذهانهم بعض الخواطر الساخرة عن ذوق هذا الدكتور (جابر) ..

صعد الدم إلى رأسى ، وقررت أن أكون سمجًا باترًا عند أول بادرة تدلّ على التحرش .. من أنتم يا حمقى ؟ وماذا تعرفون عن أى شىء كى تعطوا أنفسكم الحق فى انتقادى ؟!

قالت مدام (ناهد) ، وهى تشير إلى مكان خال على الأريكة :

- « هلم اجلس يا دكتور (رفعت) .. دعنى أقدم لك هؤلاء السادة .. »

إن هذه الحسناء لا تحتاج إلى تعريف .. لقد رأيت صورتها مرارًا ، ولم أنس اسمها .. الممثلة الشابة (هيام) التى لو كان تمثيلها فى مستوى جمالها .. لكانت لدينا (سارة برنار) أخرى ..

والسبب الذى جعلنى لم أنسها ليس مراهقة متأخرة ، لكنها تشبه (ماجى) كثيرًا ، خصوصًا عندما تنظر للسقف وتضم شفتيها كأنما تتذكر .. هذا هو السبب الوحيد الذى جعلنى أتذكرها جيدًا ..

لقد قامت (هيام) بأداء ثلاثة أو أربعة أدوار فى أفلام ملونة ، لكن حال السينما المصرية قبل حرب أكتوبر كان مضطربًا ، وكان مصابًا بانعدام وزن وتخلف عقلى واضح ، مما جعل من العسير على السينما أن ترى فى هذه الممثلة سوى جمالها .. وحقًا كانت (هيام) بارعة الجمال ..

أما الشاب ذو النظرات الحزينة والسالفين الطويلين والشامة ، والذى يتكلم همسًا وهو يسبّل عينيه ، فهو المطرب الشاب (سمير الصياد) .. وهو قد أوغل فى تقليد (عبد الحليم حافظ) حتى أنه يوشك على الإصابة بالبلهارسيا وتليف الكبد مثله .. له أغنيتان علقتا بأسماع الناس ، لكننى لا أذكر منهما سوى مقطع واحد يقول :

« أنا لو أنساكى حافتكر مين ؟ من بعد هواكى حياتى أنين »

وذلك بسبب الكسر الواضح للوزن باستعمال (حافتكر) فى الشطرة الأولى ، ومن العجيب أن أحدًا لم يلحظ هذا أو يهتم له ، وكلما أبديت تأففك من هذا ، ضحك محدثك فى استخفاف وقال : « إنه غناء على كل حال .. ليس الأمر بهذه الخطورة ! » .. فتحمر أذناك خجلًا ..

أما عن صوت الفتى فكان لا بأس به ، ما خلا حشرجة معينة فى حنجرته تغريك باستعمال أقرب عصا كى تحاول تسليك حنجرته بها ..

ثالث الجالسين هو (محمود عونى) .. الكاتب الصحفى الشهير ، الذى يرأس تحرير ثلاث صحف واسعة الانتشار .. وهو متأنق يدخن الغليون ، ويبتسم فى وقار ، وقد حرص على أن يطيل سالفيه الأشعثين الشائبين ليعطياه منظرًا غريبًا كقرود (البابون) ..

كان كاتبًا لا بأس به ، وقد أحببت كتاباته حقًّا ، وأعتقد أنه إنسان ذكى .. الغبى بين الكُتّاب يفتضح أمره سريعًا ..

رابعة الجالسين هى الشاعرة (نادية فهيم) .. وهى شاعرة فى الأربعين تدخن بإفراط .. وتكره الرجال ، باعتبارهم اللصوص الذين ظلّوا يسلبون المرأة حقوقها منذ فجر التاريخ حتى اليوم ..

هذا نمط معروف ، ولا داعى للكلام عنه أكثر ..

كان هناك كذلك مخرج سينمائى عجوز هو الأستاذ (حسين أبو النجا) .. وهو من جيل الرواد كما يقولون ، ولم يكف يومًا عن الإخراج ـ السينمائى طبعًا ـ لذات الحبكة .. بنت الحارة الشهمة الشجاعة التى يقع ابن الأكابر فى هواها ، ثم تحاول خطيبة ابن الأكابر منع النهاية السعيدة لهذه القصة .. لقد قدَّم

الرجل مائة فيلم ، كلها على مستوى واحد من السوء .. لكن المعجزة التى جعلته يستمر دون أن يموت ، جعلته بحق جديرًا بأن يكون من روّاد فن السينما ، وصار اسمه (المخرج الكبير) ..

هؤلاء هم أهم الوجوه ، وقد تناثر آخرون من حولنا ، لكنى لم أميز منهم واحدًا بعينه ، وتساقطت الأسماء سريعًا ..

بدأت الجلسة متحفظة ، ثم دعا أحدهم المطرب إلى الغناء ، وتعالت الأصوات ترجوه على غرار (غنِّ يا وحيد) ، فراح يتنحنح فى تواضع ويشير لحنجرته بما معناه إنه لم يستعد ..

فى النهاية برز عود من مكان ما ، وبدأ الرجل يعزف ، وانطلق صوته المشروخ يغنى .. و .. وبدأ البعض يصفقون مع اللحن ..

أعترف هنا أننى بدأت أصفق بدورى ، ووجدتنى أقهقه فى سرور .. هذا غريب ! فى البداية كنت متشككًا مشمئزًّا من هذا الجو بأسره مع لمسة تعال لا بأس بها ، وفجأة اندمجت وهُزمت .. فى نفسى تحرك ذات الطفل الموجود لدى الجميع ، والذى يسره

ويشعره بالفخر أن يجلس مع المشاهير .. حتى دعاباتهم التى - فى مكان آخر - كنت سأجدها سمجة مبتذلة ، بدت لى هنا جيدة لماحة لا تخلو من الذكاء ..

راح الفتى يلوح برأسه يمينًا ويسارًا ، وهو يردد دون كلل :

« أنا لو أنساكى حافتكر مين ؟ من بعد هواكى حياتى أنين »

وخطر لى أن مؤلف كلماته أحمق دون شك .. يكفيه استبدال (راح أعرف مين ؟) بـ (حافتكر مين ؟) لتستقيم الأمور ، ولما سمح لواحد مثلى بأن ينتقد ملكاته التأليفية ..

دارت المرطبات - فقط لحسن الحظ - ومعها الجاتوه ، وحلوى ما فى أطباق تشبه ذيول حيوان (الأرماديللو) ..

* * *

جلست جوار الأستاذ (محمود عونى) نناقش مستقبل البلاد .. متى تنتهى حالة اللاسلم واللاحرب ، وهل لا بد من معركة فاصلة أم لا ..

كان ذكيًا بالفعل ، وقد قدمت لى آراؤه الكثير من الأفكار الجديدة ، إنه رجل يعرف أكثر بكثير مما يقول .. واحد من (الباصقين فكريًا) لو سمحتم لى بهذا التعبير .. ولاحظت أنه لا يعلن عن آرائه إلا همسًا ، وهو يتلفت من وراء كتفيه .. هذا بالطبع يتناسب مع خطورتها ..

لا أدرى متى ولا كيف جرى بنا الوقت بهذه السرعة ؛ لكننى نظرت إلى ساعتى لأجدها الواحدة بعد منتصف الليل ..

كان عدد لا بأس به من الحاضرين قد انصرف بالفعل ، والغريب أن الدكتور (جابر) لم يظهر بعد .. حفل فى داره يوشك على الانتهاء ، وبرغم هذا لم نره لحظة واحدة ..

ونقلت خواطرى للمدام (ناهد) التى كانت واقفة على الباب تثرثر مع رجل أصلع وزوجته التى تدثرت بالفراء على كتفيها ..

قالت (ناهد) :

- « هذا هو شأن الأطباء .. ألست طبيبًا يا د. (رفعت) ؟ »

شعرت بالخجل من نفسى لأننى أملك الوقت الكافى الذى أمضيه فى حفل كهذا ، دون أن أتهمك بجمع المال .. يا لها من فضيحة ! »

كدت أنهض لأنصرف مودعًا محدثى اللبق ، وباقى الضيوف ، لكن مضيفتنا النصف حسناء رفعت إصبعها السبابة إلى جانب رأسها فى حركة أنيقة ، وقالت :

ـ « لا .. لا ! انصراف قبل عودة زوجى ؟ مستحيل ! »

صارحتها بأننى بدأت أميل للاعتقاد بأن زوجها قد توفى للأسف .. وأننى لن أنتظر هاهنا إلى ساعة الحشر بانتظار عودته ..

نظرت لى فى خبث ، ثم نظرت للموجودين ، وراحت تعدّهم بإصبعها فى شرود :

ـ « واحد .. اثنان .. خمسة .. ستة .. أنا السابعة .. لا بأس ! »

ثم بانتصار هتفت :

ـ « لقد حان الوقت ! »

تبادلنا النظرات ، وكفَّ المتحدثون عن الكلام ، وتساءل سائل :

ـ « حان الوقت لماذا ؟ »

ـ « حان الوقت كى لا ينصرف أحد ! »

سألتها فى غباء :

ـ « سبعة لن ينصرف أحدهم ؟ ما هذه اللعبة ؟! »

اتجهت إلى مركز القاعة ، وصفقت بيديها طالبة الصمت ، ثم صاحت :

ـ « يا سادة أنا آسفة على الإزعاج .. لكن الحقيقة هى أننا جميعًا محبوسون هنا ، وحتى يعود زوجى.. لقد رحل الخدم وأغلق آخرهم الباب بالمفتاح .. النوافذ فى الطابق الأول كلها مدعمة بالحديد.. الهاتف لا يعمل الآن لأن أحدهم عطّله من الخارج !! »

هبّ الكل واقفين ، وتعالت الكلمات الغاضبة كما لا بد أن تتخيل ..

وصاح المخرج العجوز فى عصبية :

ـ « ما معنى هذا ؟ هل هذا مخطط إجرامى ؟ أية لعبة هذه ؟ »

وصاحت الممثلة الحسناء بالهستيريا الواجبة :

ـ « ربَاه ! ماذا تعنى هذه المرأة ؟! »

تراجعت مدام (ناهد) للوراء خطوتين لتهدئ حماس القوم ، وقالت :

ـ « هذه هى تعليمات زوجى ، وأنا هنا سجينة مثلكم .. لماذا ؟ لو أنكم جلستم والتزمتم الصمت لاستطعت أن أشرح ! »

تبادلنا النظرات ، ثم عدنا لمجالسنا متوقعين الأسوأ .

فى رزانة سألها الكاتب الصحفى :

ـ « مدام (ناهد) .. واضح أننا فى موقف بلا تفسير .. أو أنكِ تملكين تفسيره الوحيد .. وإننا لنكون مسرورين حقًا لو قدمتِ لنا ما يزيل حيرتنا .. »

ابتسمتْ ، وجلستْ واضعة ساقًا على ساق ، وقد اعتمدت بمرفقيها على ركبتها ، وقالت فى هدوء :

ـ « الأمر يتعلق بلعبة من نوع خاص .. »

* * *

ـ « مرحبًا يا أصدقاء .. »

ـ « أنتم جميعًا تعرفون هذا الصوت دون شك .. إنه صوتى .. لكن قليلين منكم يمكنهم ملاحظة الحشرجة التى بدأت تتسرب إلى نبراته .. ربما لم تلحظها سوى (ناهد) ، وقلت لها كلامًا كثيرًا

عن برد المساء والتهابات الحلق ، وأحسبها صدقت ما قلت .. »

كان الصوت ينبعث فى تؤدة من جهاز التسجيل الذى وضعته مدام (ناهد) على المنضدة الزجاجية أمامنا .. ومع دوران الشريط كانت عيناها تتسعان بأهدابها الصناعية الكثيفة .. أدركت دون جهد أنها لا تفتعل شيئًا .. إنها تسمع هذا الشريط للمرة الأولى حقًا ..

كانت قد أحضرت لنا الجهاز ، ومعه شريط تسجيل من الطراز العتيق ذى البكرات ، وقالت لنا : إن هذه هى الرسالة التى تركها زوجها للموجودين هنا ، وأمرها ألا تبدأ التشغيل إلا حين ينخفض عدد المدعوين إلى سبعة بمن فيهم هى ذاتها ..

بالطبع وعدته بذلك .. وبالطبع ـ وإن لم تقل هذا ـ استمعتْ إلى الشريط خلسة كى لا تفاجأ بشىء .. الأمر الذى يؤكد لى أن زوجها قد قام باستبدال الشريط قبل أن ينصرف ، وبعد ما تأكد من أنها لن تجد وقتًا لسماع هذا الشريط الجديد .. النتيجةَ هى أنها حائرة مندهشة ، تسمع هذه العبارات للمرة الأولى وإن لم تعترف لنا بسبب حيرتها ..



كان الصوت ينبعث فى تؤدة من جهاز التسجيل الذى وضعته مدام «ناهد» على المنضدة الزجاجية امامنا ..

ويستمر الصوت من جهاز التسجيل :

ـ « لو كان الدكتور (رفعت إسماعيل) مازال موجودًا ، فلربما استطاع أن يفهم معنى ما أقول .. إن سرطان الحنجرة يصيب الجراحين كما يصيب سواهم ، وسيكون مملاً أن أقول : يا ليتنى امتنعت عن التدخين حين كان هذا بوسعى .. لكن الأوان قد فات ، والبكاء على اللبن المسكوب يزيد الأمور سوءًا ..

هنا شهقت الزوجة ، وغطت فاها المصبوغ بأناملها محاولة كتمان صرخة .. واضح تمامًا أنها لا تعرف عن الموضوع شيئًا ..

الصوت يستمر :

ـ « سافرت إلى الخارج ، ولم أخبر أحدًا بأننى أعتزم استشارة أساتذة جراحة الحنجرة فى الولايات المتحدة ، وقد قالوا لى ما كنت أعرفه .. لقد صار العلاج متأخرًا جدًا ، ولم يعد من أمل لى إلا فى العلاج التحفظى الذى يجعل لحظات الموت أكثر بطئًا .. »

ساد صمت طويل بعدها ..

كان السؤال الذى يتردد فى أذهان الجميع هو : ما علاقة هذا كله بسجننا ؟ لو أراد أن يموت فهذا شأنه ، لكن ما دخلنا بهذا كله ؟

عاد الرجل يتكلم بصوته الرصين ، الذى بدأت أميز فيه الحشرجة الآن .. (فقط بعد ما قال ذلك ، لأننى لست ممن يدعون الحكمة بأثر رجعى) :

ـ « الليلة لن أكون فى (مصر) .. عندما تسمعون هذا الشريط سأكون فى طريقى بالطائرة إلى (الولايات المتحدة) لأؤدى لنفسى آخر حقوقى نحوها ، وهو تحصيل حاصل كما تعلمون ، لكنى مضطر لعمله .. »

ـ « أسمعكم تتساءلون عن السبب الذى جعلنى ألعب هذه اللعبة الغريبة .. أدعوكم إلى حفل ثم أتغيب عنه ، وفى الغالب ـ لو سارت الأمور كما خططت لها ـ ستجدون أنكم سجناء فى دارى لسبب لا تفهمونه .. ويمكننى أن أخبركم بما هو أكثر .. »

ـ « لقد عاد الخدم لديارهم سعداء بهذه العطلة .. أغلق واحد منهم الباب الرئيسى كى لا تتمكنوا من الرحيل ، ولم ينس أن يفك بعض الأسلاك فى صندوق توزيع الهاتف بالشارع لينتهى احتمال أن تستدعوا أحدًا[*] .. »

(★) لا تنس أن القصة تحدث عام 1971 حيث لم يكن هناك هاتف محمول ، ولو كان مع أحد الموجودين لانتهت القصة بعد صفحة واحدة !

« كل هذا معروف لزوجتى ، وبحماقتها المعتادة قبلت أن تشارك فيه لأننى أردت أن أضعكم فى اختبار ذكاء لكيفية الخروج من هنا .. لكنها لم تعتقد ولم تشك لحظة فى أن الانتقام هو غرضى الوحيد من كل هذا .. »

« إننى أكرهكم يا سادة ! أكرهكم وأكره وجوهكم الكالحة التى تحتشد فى دارى طمعًا فى التسلية ، ولو لم يكن وجودكم فى حياتى مهمًا للرونق الاجتماعى ـ مثلكم مثل كلاب (الداشهاوند) ، والخيول الأصيلة ـ لطردتكم شر طردة ، أو أبدتكم بأقرب علبة مبيد للصراصير أجدها فى يدى ! »

« لا داعى للضيق ! أنا لا أعنى بكلامى واحدًا بعينه منكم .. فلا يعلم سوى الله (سبحانه وتعالى) من هم السبعة الذين تبقوا منكم فى هذا الحفل .. وإننى لأتساءل ..

ترى هل بقى (عادل زكى) ؟ تبًا له من منافق لص .. أنا أعرف جيدًا كم يكرهنى وكم يلسن على خلسة .. لكن الأقنعة التى علمنا المجتمع ارتداءها محكمة جيدًا ، متقنة للغاية .. الآن وقد جاءت لحظة الحقيقة يسرنى أن أعاقبه بطريقتى ..

« تُرى هل (سلوى عامر) هنا ؟ كنت طيلة حياتى أمقت هذه المتصنعة المبتذلة التى تتظاهر بحبها للأدب .. إنها أغبى من قملة وأكثر خسة منها .. »

« هل المخرج الأحمق ضيق الأفق (أبو النجا) هنا ؟ أنا أعرف جيدًا دناءته ، وتلاعبه بالوجوه الجيدة ، وأعرف أكثر من سواى أنه يكرهنى .. »

« هل ؟ هل ؟ لن أعرف أبدًا ..

« لكنى متأكد من شىء واحد .. زوجتى هنا .. مهما كانت شخصيات الستة .. فلا بد أن (ناهد) هى السابعة ..

« (ناهد) هى نموذج جيد للزوجة التى تصنع زوجها .. تصنعه عن طريق تعذيبه وإرغامه على أن يغرق همومه فى العمل ومزيد من العمل .. إنها صنعتنى بالطريقة التى تصنع بها الكلاب المسعورة بطلاً فى العدو ! وطيلة حياتى لم تكفَ عن إشعارى بالفشل ، وبأننى منحتها أقل بكثير مما تستحق .. ما إن بدأ الثراء يدق بابى حتى قررت أن ترقى نفسها إلى طبقة جديدة ، وسرعان ما تحول (أبويا) إلى (بابى) ، و (أمى) إلى (مامى) بمعجزة ما ..

« لقد انتحلت شخصية سيدة مجتمع ، وقررت فجأة أننى غير جدير بها ؛ لأن مثيلاتها يمشين على الذهب ويرفلن فى الحرير فى ظروف أخرى مع رجال آخرين .. وأصارحها أن مثيلاتها يضربن بالسياط يوميًا لو كان أزواجهن أكثر حزمًا منى !

« شخص واحد هاهنا لا أحمل له ضغينة معينة ، وأرجو أن يسامحنى لو كان لم ينصرف بعد .. د. (رفعت إسماعيل) : هل أنت هنا يا دكتور ؟

« أنا لا أكرهك بالتأكيد .. ربما كنت لا أطيقك ، لكن هذا موضوع آخر .. أنت كائن فضائى عجيب ، وما زلت أندهش كلما رأيت قامتك الناحلة ، وكيانك المريض ، والملل يطلّ من عينيك وراء عويناتك السميكة ..

« حقًا هذا لا يبرّر الانتقام منك .. لكنى كنت بحاجة إليك كما يحتاج أى حساء إلى ملح .. إلى توابل ..

« أنت تعرف الكثير عن عالم الرعب والأسرار المستغلقة ـ أو هكذا يقولون ، وإن لدىّ هاهنا كثيرًا من الرعب الذى يحتاج إلى وجودك ..

سامحنى يا زميلى على ما قد تسببه لك هذه الأمسية من متاعب ، واشكرنى على ما قد تضيفه إلى خبراتك الرهيبة ..

★ ★ ★

ـ « إن قواعد اللعبة هى البساطة ذاتها ، وقد استمددتها من كل أساطير الباب المغلق فى تراث الإنسانية ..

« أنتم هاهنا سجناء .. كلا .. لا تحاولوا الهبوط من الطابق الثانى لأننى أغلقت الباب الرئيسى الذى يقود إليه ، وأبواب الفيلا غير قابلة للتحطيم .. ربما الشىء الوحيد الذى سيتحطم هو عظامكم لو حاولتم اغتصاب باب منها ..

« على أننى تركت ثلاثة أبواب موصدة فى الطابق الأرضى .. ثمة باب واحد يقود إلى الخلاص ، وبابان يقودان إلى الهلاك التام لكم ، ولن أقول كيف طبعًا .. »

« الباب الأول : هو الباب الذى يقود إلى غرفة مكتبى .. الباب الثانى: هو الذى يقود إلى غرفة المعيشة الصغيرة .. الباب الثالث : هو الذى يقود إلى غرفة السينما .. إن (ناهد) لم يكن عندها وقت لدخول هذه الغرف قبل الحفل ..

« تشاوروا بعناية ، واختاروا .. ثم افتحوا الباب الذى اخترتموه ولا تندموا على قراركم هذا .. سيكون الهول شديدًا لو كان قرارًا خاطئًا ، ولسوف تظفرون بميتة تكتب عنها الصحف شهورًا بعد هذا ..

« إن هذا الموقف هو ببساطة تمثيل دقيق لحياتنا كلها .. ثمة باب قد يقودك إلى المجد والخلود ، وباب قد يقودك إلى الهلاك الأبدى .. المشكلة هى أن تحسن الاختيار .. المشكلة هى ألا تختار الباب الخطأ أبدًا .. لا أدرى كيف .. هذه هى أزمتنا جميعًا .. أنا قد اخترت بابى ، وظفرت بسرطان فى الحنجرة ، وحقد لا ينتهى على الأدعياء مثلكم .. ترى ماذا تختارون أنتم ؟!

« إن فرصتكم واهية لكنها ليست معدومة .. سبعة عقول لا بد أن تصل للإجابة الصحيحة ، حتى لو كانت عقولاً كعقولكم ..

« وهنا يسأل سائل : لماذا رقم سبعة بالذات ؟

« سؤال جيد وأنا أحب الأسئلة الجيدة ..

« لقد كان رقم (سبعة) شديد الأهمية فى حياتى ، وتركزت كل أحداثها المهمة حول رقم (سبعة) هذا ، ومن الغريب أن أحدًا لم يندهش لكونى ولدت فى اليوم

السابع من الشهر السابع من عام 1917 .. ربما فى الساعة السابعة مساءً كذلك ..

« إن رقم (سبعة) شديد الأهمية فى الأديان ، وشديد الأهمية فى قصص الشعوب .. وقد ظلّ رقم (777) يمثّل الكمال المطلق فى وجدان البشرية منذ زمن سحيق ..

« لهذا قررت أن أمارس لعبتى على آخر سبعة حمقى يبقون فى دارى بعد ما يرحل الجميع ..

« أعرف أنكم ستشيعوننى باللعنات ، وسوف ينهال سبابكم على رأسى ، لكنى أخرج لكم لسانى بلا حرج ، وأقول : إننى لا أعبأ بما تقولون ؛ لأننى سأكون فى قبرى قريبًا ، لا أهتمّ بشىء سوى ما أنا فيه ..

« وداعًا يا سادة ، وأتمنى لكم اختيارات موفقة !»

* * *

ظلّ الشريط يدور بلا صوت سوى صوت البكرة الرتيب ، وفى النهاية تحرّر الجزء الأخير الشفاف ليلحق بما سبقه ..

كنت أنا أول من تكلّم :

ـ « صديد ! هذا الرجل قد ضغط على (دمّل) فى روحه ليلوث كلماته بكل هذا الصديد .. »

وقال الأستاذ (محمود عونى) وهو يشعل غليونه :

ـ « زوجك يا سيدتى مجنون تمامًا ، ومن الغريب أن أحدًا لم يلحظ هذا ، برغم أن (جنون العظماء لا يمرّ دون تعليق) ، كما قال (شكسبير) .. »

كانت فى أسوأ حال ممكن ، ولم تكن على استعداد لسماع العبارات المكرّرة السخيفة على غرار (إنه مجنون يا سيدتى) و (يا للهول !) وما إلى ذلك ..

الآن كان كل واحد منا يحتجّ بطريقته .. الممثلة تحتج بكثير من الهستيريا ، مع بعض العبارات التى صارت تفلت منها ، ولا تدلّ على أصل شديد الرقى للأسف .. المطرب يمدّ يديه فى حيرة وعدم فهم تمثيليين كأنما هو يوشك على غناء أغنية عاطفية ، ولسان حاله يقول : أنا لا أستحق هذا .. أما الصحفى الكبير فقطّب جبينه بما معناه : لنكن عقلانيين بعض الشىء ..

الشاعرة الغاضبة ازدادت كثافة وسرعة تدخينها ، وراحت لفافة التبغ تهتز بين أناملها منذرة بزلزال

عصبى ، وراحت تقول عبارات من نوع (هذا لا يليق بنا) .. (دعابة سخيفة من إنسان ظنناه على قدر ما من النضج) ..

سألتهم وقد قررت أن أجلس :

ـ « من منكم أخبر الآخرين أنه هنا ؟ »

تبادلوا النظرات .. أخيرًا قال المطرب وهو يتحسس شامة جبينه :

ـ « إن طبيعة حياتنا الاجتماعية تجعل من المستحيل التنبؤ بميعاد معين نعود فيه لديارنا .. »

هذه هى المشكلة إذن .. كل هؤلاء أشخاص من الممكن جدًا أن يبيتوا خارج ديارهم ، ولن يندهش أحد لغيابهم ..

سألت الكاتب الصحفى الذى أعرف أنه يعيش حياة اجتماعية مستقرة قوامها الالتزام :

ـ « هل تعرف المدام أنك هنا ؟ »

نفث المزيد من دخان الغليون ، وقال :

ـ « للأسف لا .. إنها مع الأولاد فى (العجمى) هذه الليلة بالذات .. ولا تعرف أننى هنا .. »

ـ « فى (العجمى) فى (أكتوبر) ؟! »

ـ « إنها تعشق إسكندرية فى الشتاء ! »

هنا سألنى المخرج العجوز بنفاد صبر :

ـ « وأنت يا د. (رفعت) ؟ ما هى ظروفك ؟ »

ابتسمت فى حزن :

ـ « أنا ؟ إننى آخر إنسان يمكن أن يسأل عنه أحد أو يتساءل عن سبب غيابه .. إن موتى سيضايق جيرانى لأسباب تتعلق بالرائحة لا أكثر ! »

وطبعًا لم يكن من داع لسؤال السيدة (ناهد) .. فالوحيد الذى يمكن أن يقلق عليها هو زوجها .. زوجها الذى هو فى طريقه الآن ليموت بـ (الولايات المتحدة) ..

الحقيقة هى أننا فى مأزق لا بأس به .. لكن هل هو مأزق حقًا ؟

* * *

نهضت (هيام) فى هستيريا وعصبية متجهة نحو أحد الأبواب فى طرف القاعة ، وهى تصيح :

ـ « دعونا نخرج من هنا ! إن هذه اللعبة بدأت تثير أعصابى .. لا أحب أن يتسلى أحدهم بى .. »

لكن (ناهد) لحقت بها ، فاعتصرت معصمها فى عصبية أكثر ، وهمست من بين أسنانها :

- « اهدئى يا (هيام) .. هذا هو باب غرفة السينما .. وهى من الغرف التى تكلم عنها الآن ! »

- « لا يهمنى ما يقول هذا الأحمق .. سأخرج الآن و ...... »

- « اهدئى !! »

دوت صرخة (ناهد) المنذرة المخيفة ، وأدركنا أنها على حافة الانهيار بدورها .. ورأت الفتاة أن فتح الباب قد يكون خطرًا وقد لا يكون .. لكن الخطر الحقيقى الداهم هو (ناهد) التى تحولت إلى نمر شرس ، وكان العرق مع الدموع قد غمر وجهها ، وسال كل الطلاء الذى دهنت به سحنتها ، فبدت كأحد محاربى (الأباش) بعد ما سلخ رأس الجنرال (كاستر) .. منظر مخيف فعلاً ..

سألتها فى فضول علمى برىء :

- « غرفة سينما ؟ هل لديكم غرفة سينما ؟! »

أخذت شهيقًا عميقًا ، وتراجعت عن الباب ، وقالت فى ملل :

- « لدى زوجى آلة عرض للهواة من طراز 16 مم .. وهو يهوى مشاهدة الأفلام فى هذه الغرفة .. ليست

سينما بالمعنى الصحيح ، لأن أكثر الأفلام الروائية هى مقاس 35 مم .. »

دعوتها إلى الجلوس ، ثم طلبت منهم أن يلتزموا الصمت ، كى نناقش بنظام ودون هلع موقفنا غير المعتاد هذا .. لست من هواة استعمال اللغات الأجنبية ، ما دام فى العربية ما يقابلها ، لكننى رحت أردد مرارًا بالإنجليزية (Don't Panic) .. لأن لفظة (Panic) الإنجليزية تعبر بدقة عن الهلع الذى يسلبك القدرة على التفكير ، والذى يجعل رواد السينما يتدافعون على الأبواب ويهشمون بعضهم البعض ؛ إذا شموا رائحة دخان .. ولسبب كهذا تصمم أبواب قاعات المؤتمرات والمسارح بحيث تنفتح إلى الخارج لا الداخل ..

قلت لهم محاولاً أن أكون باردًا عقلانيًا :

- « كما ترون نحن فى وضع غير مسبوق .. ما زلت أشعر أن فى الأمر مزحة أو دعابة ما ، الغرض منها اختبار أعصابنا .. »

- « مستحيل ! »

كانت هذه من الزوجة التى قالتها دون أن ترفع عينيها ، واعتصرت قدح الشاى بين يديها فى عصبية ، وغمغمت :

- « لو كنت تعرف زوجى لعرفت أنه لا يمزح .. وعندما يقول إنه ينوى هلاكنا فلك أن تثق فى هذا ! »

- « هذا هو فصل الخطاب .. »

وصببت لنفسى بعض الشاى من البراد الخزفى الأنيق .. كان قد برد تمامًا .. لكنى كنت بحاجة إليه .. وأردفت :

- « حسن .. يمكننا إذن أن ننطلق من فرضية ثابتة ، هى أن هذا الموقف حقيقى .. وهو فى رأيى لا يخلو من تشابه مع مواقف شهيرة فى الأدب العالمى .. إن من يخطب الحسناء (بورشيا) فى مسرحية (تاجر البندقية) عليه أن يختار واحدًا من ثلاثة صناديق .. الصندوق الأول من الذهب .. الثانى من الفضة .. الثالث من الرصاص .. وفى أحد الصناديق تنتظر صورة الحسناء .. »

بالطبع يقع كل خُطاب (بورشيا) فى خطأ أحمق .. إذ يفترض كل منهم أن صورة حسناء كهذه لا بد أن توجد فى صندوق من ذهب أو فضة .. فقط بطل المسرحية هو الذى يفطن للمغزى الأخلاقى للموقف ، ويختار الصندوق المصنوع من رصاص .. وبالطبع كان هو الصندوق المطلوب ..

« أتذكر أيضًا ..... »

فى غيظ قالت (هيام) :

- « وحياة والدك لسنا الآن فى ندوة ثقافية .. »

كتمت خواطرى وصمتّ .. وكنت أوشك أن أحكى قصة (ستوكتون) الشهيرة عن الباب الذى تنتظر أميرة جميلة خلفه ، والباب الذى ينتظر نمر شرس خلفه .. وعلى الأسير أن يختار أحد البابين .. المشكلة هى أن (ستوكتون) لم ينهِ القصة قط .. بل أعلن أنه عاجز تمامًا عن إنهائها ، لهذا يفضل الانسحاب ، تاركًا الأمر لخيال القارئ !

قال الأستاذ (محمود) وهو يعيد حشو غليونه :

- « بل الموقف يحمل روائح من مئات القصص فى التاريخ ، ومنها قصة ذى اللحية الزرقاء الذى أهدى زوجته قصرًا به مائة غرفة ، لكنه أمرها ألا تفتح الغرفة المائة .. النتيجة هى أن الزوجة صارت حياتها جحيمًا ، ما الذى يوجد فى الغرفة المائة ؟! »

- « إن قيمة الباب المغلق عتيقة راسخة فى وجدان الإنسان ، ربما منذ اخترع الباب .. وها نحن أولاء نواجه الموقف ذاته بوضوح وفجاجة لم يسبق لهما مثيل .. »

ونظرت إلى العيون من حولى ، وابتلعت ريقى ، وقلت .. »

- « السؤال هنا هو : ما الذى نتوقعه لو فتحنا الباب الخطأ ؟ »

سأل الأستاذ (محمود) الزوجة فى رفق :

- « هل زوجك يفهم شيئًا فى المفرقعات ؟ »

ابتسمت ابتسامة مريرة بزاوية فمها ، وغمغمت :

- « هل تمزح ؟ بالطبع لا .. »

- « وهل هو بارع فى الأعمال المنزلية ؟ »

- « كان ! لكن وضعه الاجتماعى وانشغاله لم يعودا يسمحان له بإصلاح صنبور المطبخ ، أو تركيب كشاف من (نيون) لو كان هذا ما تعنيه .. على كل حال أنا لا أثق فى قدرته على عمل شىء بالشكل الصحيح .. »

قلت فى لهجة ذا مغزى :

- « هذا هو بالضبط ما جعله يضعك فى قائمة الانتقام هذه .. يبدو أنه تحول بالنسبة لك إلى آلة لجمع المال لا أكثر .. »

رشفت رشفة من قدح الشاى الذى تمسكه بكفيها معًا ، وقالت :

- « الحق ما تقول .. أحيانًا كنت أتمنى ألا يعود إلى الدار .. فهذا يضيع بعض وقت جمع المال .. ربما كان من الأفضل أن يرسل ما يكسبه إلى الدار بحوالة ! »

ابتسمتُ .. فلم أتوقع هذه الصراحة منها ..

وكانت هذه - مع إنهيار (هيام) - هى النوادر الأولى لما سيتكرّر كثيرًا فى هذه الليلة السوداء : انتزاع أقنعة الحضارة واحدًا تلو الآخر .. الظهور دون أى قناع اجتماعى من أى نوع ..

حقًا هى تجربة فريدة ..

* * *

من جديد تساءل الأستاذ الكبير :

- « ما الذى نتوقعه لو فتحنا الباب الخطأ ؟ »

- « لن نعرف أبدًا .. لكن الحلول السهلة مثل نمر حبيس ، أو بعوض يحمل الحمى الصفراء ، أو قنبلة تطيح بنا ؛ كلها تبدو خيالية جدًا وبعيدة جدًا .. »

- « إذن هو يمزح .. »

- « مستحيل !! »

من جديد قالتها الزوجة فى ثقة ، وكرّرت مسلمتها الشهيرة :

- « زوجى لا يمزح أبدًا .. »

قلت أنا وأنا أضع قدح الشاى :

- « لكن .. علينا الآن أن نختار ما بين البقاء هاهنا ، أو تجربة أحد هذه الأبواب .. والسؤال هو : أى باب ؟! »

تبادلنا النظرات .. حقًا لم يكن هناك من يملك الإجابة .. باب مكتب .. باب غرفة السينما (وهو موح بشىء ما) .. وباب غرفة المعيشة الصغيرة .. كلها أبواب كأية أبواب أخرى ، ولا يميزها شىء .. وفى ثقب مفتاح كل باب منها استقر مفتاح برىء المظهر فاخر إلى حدّ مستفز .. كأنما يدعونا بصمت إلى الدخول ..

ساد الصمت برهة (والبرهة كما يقول اللغويون فترة طويلة من الوقت ، لا كما هو شائع .. الهنيهة هى ما يعبّر عن الفترات القصيرة) .. ثم تكلم الأستاذ الصحفى فى تؤدة ، وكان ما قاله معقولاً :

- « لن نفعل أى شىء .. سننتظر .. وحتمًا سيبحث أحدهم عنا .. سيجئ واحد من مكان ما .. بائع .. محصّل كهرباء .. ضيف .. ولسوف يقرع الجرس عندها ..... »

صاحت (هيام) :

- « لكن هذا يحتاج إلى وقت .. على الأقل لن يحدث قبل شروق الشمس .. »

- « وما هى المشكلة ؟ نحن هنا مستمرون فى حفلنا البهيج نتبادل مناقشات ممتعة .. البيت ملىء بالطعام والشراب .. حتى الطرب موجود هاهنا .. »

وأشار فى مماحكة إلى المطرب ، فابتسم هذا فى عصبية ..

قلت وأنا أخلع سترتى :

- « لا بأس .. يبدو لى هذا حلاً مناسبًا بالنسبة لأشخاص لا يسأل عنهم أحد ، ولا يهم أين يبيتون هذه الليلة .. »

وبدأت الجلسة الثانية لنا ..

حقًا لم يكن المرح ثامننا فى هذه المرة ..

كانت هناك دعابات لكنها مخنوقة خجول ، وحاول المطرب أن يدندن شيئًا ما .. لكن مزاجه كان متعكرًا بحق .. هؤلاء المطربون الجدد لا يمكن لشىء أن يمنعهم من الغناء سوى القنبلة الهيدروجينية ، ومعنى صمته هو أن ما نمرّ به هو بحق كارثة ..

فى النهاية هبطت موجة المرح كما ارتفعت ، ولم يبق من البحر سوى سطح راكد قلق صموت ..

وبمرور الوقت تحررنا من وقارنا أو نسيناه .. نزعت (هيام) حذاءيها ، ووضعت ساقًا تحتها وهى جالسة ، وفك الأستاذ الصحفى ربطة عنقه ، على حين نسى المطرب التعبير الولهان الأسيان على وجهه ، وبدا أكثر مرحًا وأقل رقة ، حتى توقعت أن تنزع مدام (ناهد) جمّتها الصفراء الثقيلة كى تريح رأسها قليلاً ، أو يمدّ المخرج العجوز يده فى فمه ليخرج طاقم أسنانه ويلقيه فى كوب الماء أمامى ..

كانت مدام (ناهد) أكثرنا راحة طبعًا ، فهذا بيتها .. لهذا نهضت مرارًا ، وغسلت وجهها ، وعادت لنا أكثر من مرة حاملة شيئًا يؤكل أو يشرب .. ثم تجرأت أكثر فأعلنت :

- « من يرد استعمال الحمام يمكنه هذا .. »

- وكانت هذه هى جملة الخلاص لنا .. لحسن الحظ أن زوجها المخبول لم يضمّ باب الحمام إلى القائمة .. لن نموت باحتباس بولى على الأقل ..

بدأت (هيام) تغفو بعد كل الطاقة الهستيرية التى بذلتها ، فأراحت رأسها على كتف الشاعرة ، وغابت عن الوجود ، وهنا نهضت (ناهد) فجلبت غطاءً صغيرًا من (التريكو) فرشته على ركبتيها .. وعادت للجلوس ..

قلت وأنا أتأمل الأبواب فى شرود :

- « الرعب خلف باب مغلق .. لقد جرّبت هذه القصة مرارًا .. وكانت آخر مرة فى (رومانيا) فى كهف مظلم .. كان الباب يقود لعالم شيطانى يسمونه (جانب النجوم) منه يجىء مصاصو الدماء إلى عالمنا ! »

- « هراء ! »

قالتها الشاعرة فى اشمئزاز ، وأشعلت لفافة تبغ أخرى ..

لم أعلق لأن الجدل مع هذه السيدة مضيعة للوقت .. أحيانًا يكون من الذكاء ابتلاع الإهانات .. خاصة إن لم ينتج هذا عن ضعف ..

قال الكاتب الصحفي :

ـ « ما من أحد منا إلا وكانت له تجربة رهيبة مع باب مغلق .. الباب الفاصل بين عالمين .. بين الجهل والمعرفة .. بين الرعب والتوجس .. بين الانتظار ونهاية الانتظار .. »

نظرت إلى الجالسين ، وقلت :

ـ « هذه فكرة لا بأس بها لتمضية الوقت .. لم لا يحكى كل منا قصته مع الباب المغلق ؟! »

ـ « ربما لا توجد قصة .. »

ـ « أشك فى هذا .. من يدرى ؟ إن عدم وجود قصة هو قصة مسلية فى حدّ ذاتها .. »

تساءل المطرب الصاعد ، وهو يضع عوده جانبًا ، كأنه (معبد) وقد فرغ من تعليم المقامات لـ (دنانير) :

ـ « ما جدوى هذا ؟ »

قلت وأنا أنزع حذائىَ لأتربع على الأريكة :

ـ « جدواه ألا يشعر بمرور الوقت أولاً .. جدواه

أن نزداد حكمة ويتسع خيالنا .. جدواه لى أن أعرف أكثر .. ظننت هذا السؤال لا يجىء من فنان ، وقد امتلأ العالم بمن يشكون فى جدوى الفن أصلاً .. »

ولكنى فى سرّى لم أجرؤ على اعتبار هذا الفتى فنانًا .. الفن كما أفهمه شىء أكثر رقيًا وشفافية ونورانية .. الفن هو ما يصنعه (رينوار) و (فان جوخ) و(صلاح طاهر) و(موتسارت) و(عبد الوهاب) و(لورانس أوليفييه) و(محمود مرسى) ..

نقطة ثانية لا تخلو من الحذلقة : (الفنان) هو الحمار الوحشى فى اللغة العربية ، أما ما نعنيه هنا فهو (المُغنّ) .. وهو نموذج آخر للخطأ الشائع حين يصير هو الصواب الوحيد .. ويحتاج الأمر إلى شجاعة غير عادية كى تكافحه ..

قال المخرج العجوز :

ـ « ليكن .. إن الفكرة تروق لى ، وربما ألهمتنى بعض أفكار جديدة ! »

(أدعو الله ألا يحدث هذا ، وإلا كانت سهرة مملة حقًا) .. قلتها فى سرّى ، ثم طلبت أن يبدأ السرد من سيبدأ ..

- « ومن يبدأ ؟ »

فى تواضع قال المخرج وبلهجة من ينتظر تزلفًا مماثلًا :

- « لو كان بالأكبر سنًا فهو أنا .. ولو كان بالأكبر مقامًا فهو الأستاذ (محمود عونى) ! »

قلت دون أن أوجه له أية مجاملة :

- « إذن يمكنك البدء يا (سمير) !! »

* * *

وهكذا دارت حلقة الرعب الرابعة .....

ترى كيف دارت ؟!

* * *

الباب الأول

« موعد مع الأستاذ »

يفتحه : « سمير الصياد »

« هذه القصة لن تنتهى إلا بنهاية من اثنتين : إما أن الأستاذ يستعين بالسحر ، أو ما هو أسوأ كى يصل إلى إلهامه ، وإما أنك ستظن هذا ثم يتضح أنك مخطئ ! »

- ١ -

راح (سمير الصياد) يلهث ، ويشهق وقد سبَل عينيه ، ممعنًا فى التهافت كعادته .. وكأنما يقلد (عبد الحليم حافظ) فى أفلامه القديمة ، حين كان يصارح محبوبته بأنه مريض بمرض مميت ..

قال وهو ينظر للسقف :

- « قصتى مع الباب المغلق ؟ يا لها من قصة ! »

* * *

بيت الأستاذ (عزت عبد الحميد) ..

كنت واقفًا هناك أمسح حذائى ، فى مؤخرة ساقىَ سروالى ، وترتجف يدى فى عصبية على العود ، وبصعوبة أتمالك أعصابى ..

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى أجىء فيها إلى هذه (الفيللا) الفاخرة فى حىّ (الزمالك) .. لقد جئت هاهنا مرارًا .. اشتريت أكثر من رغيف (طرب) من الكبابجى الذى يقع محله فى بداية الشارع ، وأمشى حالمًا حتى (فيللا) الأستاذ لأقف فى الظلام وسط غطاء أوراق الشجر .. ألتهم (الطرب) وأشعر به ينفذ إلى روحى مباشرة .. فأحلم .....

أمضى ساعة أو بعض ساعة فى المكان ذاته ، ثم أرحل مدندنًا بالأحلام ، وقد اكتسى كتفا قميصى بفضلات الطيور التى تغفو بكثافة فوق الأشجار ..

(طرب) و (طيور) و (موسيقا) .. يا له من مزيج جميل ! لقد قضيت معه أعوامًا ، وفى روحى امتزج مذاق (الطرب) بأعذب الألحان ..

لكن هذه هى المرة الأولى التى أجئ فيها لبيت الأستاذ (مدعوًا) ..

* * *

كانت بدايتى هى بداية أى مطرب شاب .. نشأت فى قرية قرب (الدلنجات) بالبحيرة ، ومنذ طفولتى قيل لى إن صوتى يمتاز بشىء ما ..

وفى العشرين من عمرى بدا أننى لن أصلح لشىء إلا أن أكون مطربًا ، ونزحت إلى (القاهرة) لأدرس الموسيقا ، وأقيم فى فندق رخيص من فنادق القباقيب إياها ..

اشتركت فى عدة حفلات ، ووقعت فى أكثر من قصة حبّ كنت أنهيها دومًا - حين أملها - بأن أصارح المحبوبة بأننى مريض بالسرطان ، وأغنى لها فى شجن :

- « كنت أتمنى يطول العمر ، وأعيش لياليه »

ثم أنصرف دامعًا وهى دامعة ، لأشترى شطيرتىّ فول من (مسعد) ، وألتهمهما فى العشاء ، ثم أنام قرير العين ، أفكر فى حبّ جديد !

ربّاه ! لقد كانت أيامًا جميلة ..

على أن أكثر من قائل صارحنى بأننى أضيع شبابى بحق .. صوت جميل كصوتى يستحق أن أكرمه بلحن جميل أو أجمل .. لم يكن لدىّ ملحن سوى واحد من سنّى يُدعى (عباس) ، ولم يكن واعدًا جدًا ..

ونصحونى بأن أحاول الاتصال بالأستاذ (عزت عبد الحميد) .. فهو يجيد تلميع المواهب الجديدة وصقلها .. ثم إنه متهاود فى أسعاره مع الشباب ولطيف المعشر كما قالوا ..

حصلت على رقم الهاتف مذهولاً مبهور الأنفاس ، وحاولت مرارًا أن أحصل على موعد ، لكنه كان يصغى لى ببرود ، ثم يقول عبارته الشهيرة : (ربنا يسهّل) أو يعتذر فى تهذيب أو غلظة ..

ذات مرة طلب منى أن أنشد فى الهاتف مقطعًا من أحد الموشحات ، ولم أكن مستعدًا له .. بعد ما أصغى

إلىّ غمغم شيئًا عن عدم حاجته لأكل البيضة كلها كى يعرف أنها فاسدة ..

لكننى لم أيأس ، ولم أقنط ..

وفى النهاية وافق على مقابلتى فى تمام العاشرة مساءَ ذلك اليوم السعيد ..

* * *

نزلت من سيارة الأجرة - وكنت فى حاجة لذلك ، لأن العود معى - ملهوفًا متلاحق الأنفاس ، ورحتُ أرمق الفيللا ، الجاثمة فى الظلام كأنها المجد ينتظرنى ..

دنوت من البوابة الحديدية فقرعت جرسًا ، ونظرت إلى ساعتى .. إنها العاشرة وخمس دقائق .. تبًّا ! شعرت فى لهفتى أن هذه الدقائق الخمس قد تكون السبب فى انهيار مستقبلى الفنى ..

جاء بواب لا يرتدى الجلباب ففتح لى الحديقة ، وكانت هناك كلبته تحاول الوثب لتمزيق أحشائى ، لكنه منعها فى رفق ، واسمها كأية كلبة تحترم نفسها هو (توسكا) .. لا بد أن هناك قانونًا يمنع تسمية إناث الكلاب باسم آخر ..

اجتـزت المدخل الذى تم رصفه بقرميد صغير ملوّن ، وتناثرت على جانبيه مصابيح سوداء أنيقة ، كمصابيح الشوارع لكنها أجمل بالطبع ..

شعرت بضآلة حقيقية .. ترى كم أغنية ناجحة يجب أن أقدّم قبل أن أمتلك ثمن ثلاثة عواميد من هذه ؟

هنا رأيت من يمشى بين النباتات خارج المنزل ، ودنوت منه فعرفته على الفور .. إنه الأستاذ بشحمه ولحمه كما اعتدنا أن نراه فى كل وسائل الإعلام .. أنتم تعرفون منظره المهيب دون شك .. الشعر الأبيض الناعم المنساب كخيوط الفضة .. النظرة (اللوردية) الأرستقراطية من وراء العوينات .. الشامة الزرقاء فوق حاجبه الأيمن .. ربطة العنق التى يرتديها بكامل أناقتها تحت روب قصير برّاق ..

فما إن رآنى حتى وقف ويداه فى جيبى الروب ، وغمغم بانبهار :

ـ « (سمير) .. (سمير القرموطى) .. أليس كذلك ؟ »

احتبس الكلام فى حلقى ، فأشرت لصدرى فى بلاهة أنه أنا ..

قال فى وقار ، وهو لا يكف عن تأمل وجهى بفضول :

ـ « هذا ليس اسمًا فنيًا .. (سمير الصياد) .. هذا هو اسمك الجديد .. لم نبتعد عن البحر والقراميط كثيرًا ! »

وطوح برأسه للوراء وانفجر فى قهقهة معدنية مجلجلة كما يظهرون بشوات ما قبل الثورة فى السينما .. وقبلت أنا فى كثير من التواضع والحياء عملية تبديل اسمى التى لا دخل لى فيها ..

ولحقت به إلى داخل الفيللا ، بينما هو يتكلم فى حرارة :

ـ « كنت أغنى بزهورى .. أنت لا تتصور حساسية البنفسج لهذا الجوّ الذى نمرّ به .. ثم إننى كتبت لك لحنًا لا بأس به ، وكنت أعتزم أن أضع عليه لمساتى الأخيرة فى ظلام الحديقة .. »

ثم ـ دون تحفظ ـ راح يدندن بصوت عال :

ـ « را تاتاتا را را را تين .. را تاتاتا را را تين .. »

وصمت قليلاً .. ثم قال :

- « أنا لو أنساكى حافتكر مين ؟ من بعد هواكى حياتى أنين .. هذه هى الكلمات التى تصلح لهذا الوزن .. سأقترح عليك اسم شاعر مناسب من يجيدون تركيب الكلمات على الألحان لا العكس .. وهو سيكمل لك القصيدة إلى آخرها .. »

وكان هذا هو ميلاد أغنيتى الجديدة ، التى اشتهرت بها لأول مرة فى حياتى ..

كيف كان حالى فى هذه اللحظات ، ومع هذه المودة الزائدة ؟ طبعًا يمكننى أن أوفر هذا العناء على نفسى .. كنت ذاهلاً فاقد النطق تقريبًا .. لقد اختارنى الحظ فجأة كى يقدم لى كل شىء ، ولا أعرف التفسير ..

* * *

كانت غرفته كما تخيلتها بالضبط بلا زيادة ولا نقصان ..

يوجد أكثر من عود مزدان بالعاج على الحوائط ، مع صورة عملاقة له وهو يبتسم فى غموض ... صورة لم أحسب قط أن حجمها ممكن .. كما أن هناك حوالى خمسة أجهزة تسجيل من ماركات مختلفة ، وبعض نباتات الظل أمام نافذة عملاقة تحتل جدارًا كاملاً ،

ولا يظهر منها الآن سوى سواد الليل تنتثر فيه أضواء الحديقة ..

قال لى وهو يجلس واضعًا ساقًا على ساق :

- « مشكلتك أنك تقلد (عبد الحليم حافظ) أكثر من اللازم .. وهذا لن يقودك لأى مكان لأن الأصل موجود وفعّال .. عليك أن تتميز ولا تمتاز .. عليك بالبحث عن طابع جديد .. »

وهنا دق جرس الهاتف ، فرفع السماعة وراح يتكلم مع أحدهم فى عبارات سريعة مقتضبة لم أفهم منها الكثير ..

اختلست النظر إلى الحجرة من حولى .. كان حجمها هائلاً يذكرنى بدوّار العمدة فى قريتى ، لكن بابًا ضخمًا كان ينتظرنى فى الركن .. ولا أدرى سبب ذلك ، لكنى لم أستطع إبعاد عينىّ عنه ..

انتهت المكالمة ، فوضع السماعة وشرد بذهنه قليلاً ..

بعد هنيهة قال وهو يمتص إبهامه :

- « هذا (عادل شفيق) يريد تعديلاً فى لحن أغنيته الأخيرة .. »

بانبهار الأغبياء صحت :

ـ « الأستاذ (عادل شفيق) شخصيًا ؟ المطرب ؟

ابتسم فى سخرية :

ـ « طبعًا يا بنى .. لا حاجة لى إلى معرفة طبيب أسنان بهذا الاسم .. أرجو أن تمهلنى لحظة .. »

ونهض فى تؤدة متجهًا إلى ركن القاعة ، حيث كان الباب الخشبى الضخم الذى لم تفارقه عيناى ..

فتحه ، وللحظة رأيت ضوءًا أحمر غريبًا يخرج من ورائه ، وفى اللحظة التالية كان الباب قد انغلق وجلست وحدى ..

وضعت العود الخاص بى على الأريكة ، ورحت أتأمل المكان .. لشدّ ما تمنيت رؤية عملية الخلق لدى هذا الرجل العظيم .. يقول من يعرفون (محمد عبد الوهاب) إنه لا يكف عن الزوام كالقطط فى سرّه ، من فرط الألحان التى تحتشد فى ذهنه .. ويقول من عرفوا أمير الشعراء (أحمد شوقى) إنه دائم الشرود ، وكثيرًا ما يخرج علبة التبغ ليدوّن عليها بخط صغير بعض أبيات أتاه وحيها فجأة ..

ترى ما هو دور الوحى فى حياة الأستاذ (عزت عبد الحميد) ؟

إنه لمشهد مثير حقًا .....

جلست أنتظر .. أصخت السمع والخيال إلى ما وراء الباب المغلق ، وهنا خيل لى أننى أسمع صوتًا غريبًا .. صوتًا أقرب إلى شهيق الغريق فى اللحظات المريرة التى يرتفع فيها لسطح الماء ، فيحاول أن يعبّ الهواء عبًا ، فلا يجنى سوى ملء رئتيه بالفقاقيع ..

هاااااه ! هاااااه ! هاااااه !

وتكرّر الصوت نحو عشر مرات .. ثم دوّى صوت شىء يسقط أرضًا ..

بوم !

* * *



إننى أسمع صوتاً غريباً .. صوتاً أقرب إلى شهيق الغريق .

– ٢ –

قال (سمير الصياد) بصوته المبحوح :

هرعت إلى الباب فدققته فى أدب مرارًا ، وقلت :

– « هل من شىء أفعله يا أستاذ ؟ هل أنت بخير ؟ »

مرّت فترة أطول من اللازم ، ثم سمعت الباب ينفتح ورأيته يخرج ..

كان فى أحسن حال .. بأناقته المعهودة وانتعاشه ، لكن شيئًا من التحفظ سرى إلى أسلوبه فى الكلام ، وقال لى :

– « لا داعى للقلق .. فلا أجد ما يدعوك للسؤال .. »

ثم دعانى إلى الجلوس ، ومدّ يده إلى عود مزخرف ملقى على إحدى الأرائك ، فراح يدندن عليه لحنًا لم أتعرّفه ، وثنى جذعه ليدوّن شيئًا من نوتة موسيقية على بعض الأوراق أمامه ..

ثم حرك شفتيه فى استمتاع كمن يتلمظ :

– « هكذا .. لا بأس على الإطلاق .. »

★ ★ ★

قلت للفتى وأنا أفرد ساقىّ طلبًا لإراحتهما :

- « هذه القصة لن تنتهى إلا بنهاية من اثنتين : إما أن الأستاذ العظيم يستعين بالسحر، أو ما هو أسوأ كى يصل إلى إلهامه ، وإما أنك تظن هذا ثم يتضح أنك مخطئ ! »

ابتسم المطرب الشاب كمن حوصر فى ركن من الحلبة ، وقال :

- « هكذا لا تترك لى مجالاً لإكمال قصتى يا د. (رفعت) .. إن قصتى أغرب على كل حال .. »

هنا تدخل الأستاذ (محمود عونى) :

- « لا يجب أن تكون كل القصص جديدة لا يمكن التنبؤ بنهايتها يا د. (رفعت) ، وإلا كان من الخير لنا أن نظل صامتين .. »

قلت فى شىء من خجل :

- « معذرة .. لكنى إن اشتهرت بشىء فبسرعة الملل .. يخيل إلىّ أن كل ما يحدث ويقال من حولى ، قد حدث وقيل من قبل ، لكن الناس جميعًا نسوا ما عداى ! »

حقًا .. كان هذا هو الشعور الذى ضايقنى طيلة حياتى ..

فى التسعينات كتبت الصحف عن حادث الزوجة التى قتلت زوجها ، ووضعت أشلاءه فى أكياس بلاستيكية .. أصيب الناس بالهلع ، وراحت الصحف تكتب عن (الدموية التى تسربت إلى نفسية رجل الشارع) وعن تغير أنماط الجريمة فى (مصر) وعن .....

لم يصدقنى أحد حين قلت إن هذه الجريمة حدثت مرارًا فى الثمانينات والسبعينات والستينات ، وربما كانت تحدث قبل اختراع الأكياس البلاستيكية ، لكن الجميع نسوا ببساطة ، وصرت أنا المخبول الوحيد ، وغير هذا كثير ..

ولكن دعونا نصغ لقصة الفتى إلى نهايتها ..

* * *

قال (سمير الصياد) بصوته الولهان :

- « توطدت صداقتى مع الأستاذ ، ورحت أتردد على داره ثلاث مرات أسبوعيًا .. وأخيرًا جاءت اللحظة التى دخلت فيها (ستوديو) الصوت كى أسجل رائعتى الأولى .. « أنا لو أنساكى حافتكر مين .. » ، وبعدها قدمت رائعتى الثانية : « الحب اللى جانى .. غير الأولانى ! »

بدأت الشهرة تنمو ببطء ، واشتريت سيارة نصف عمر ، ودعيت إلى بعض حفلات ، حيث كان عدد لا بأس به راغبًا فى سماع (الحب اللى جانى) .. وفى الواقع كنت مدينًا للأستاذ بكل شىء .. حقًا صدق من قالوا : إنه هو الحل السحرى للمبتدئين فى الغناء ..

بشرط أن تروق له أولاً !

وضع ألف خط تحت هذه العبارة .. لماذا اختارنى الرجل بالذات بعد ما وصف صوتى بأنه (بيضة فاسدة) ؟ ولماذا احتفى بى كل هذه الحفاوة .. قد يقول قائل : إنه غيّر وجهة نظره فى صوتى ، ولكن متى أعاد سماعه ؟

دائمًا ظلت علامة الاستفهام معلّقة .. بلا جواب ..

* * *

علامة الاستفهام الثانية كانت تحيط بالباب المغلق ..

ما الذى يفعله الرجل خلف هذا الباب المغلق ؟ فى كل مرة يبحث فيها عن إلهام جديد كان يعتذر ، ثم ينسحب إلى هناك ، وتمرّ دقائق بعدها يعود إلى بالجواب .. والجواب دائمًا جميل متقن .....

هنا تدخلت - أنا (رفعت إسماعيل) - فى الموضوع ، وسألته :

- « هل أنت واثق من أن ما خلف الباب المغلق ليس دورة مياه ؟ كثيرًا ما يجىء الإلهام فى الحمام للعظماء ! »

ابتسم (سمير) كأنما كان يتوقع هذا ، وقال :

- « كل الثقة .. الناس لا تشهق فى الحمام كالغرقى ، وتدخل فى إغماءة .. هذا هو الصوت الذى أسمعه .. »

- « حقًا هذا غريب .. وبالطبع قمت أنت بفتح الباب يومًا .. »

- « كيف عرفت ؟ »

- « أنا أعرف البشر .. لقد قتل الفضول القط كما قال الإنجليز منذ دهور .. »

- « حقًا فتحت الباب .. »

وشردت عيناه إلى بعيد .. كان يتأمل المقبض الذهبى الغليظ ..

* * *

لقد تركه الأستاذ ، ودخل الغرفة المغلقة ، ولبضع دقائق ظل جالسًا وحده يتأمل الباب فى نهم .. المقبض الذهبى ـ المُذّهب للدقة اللغوية ـ الذى ينتظر يدا جريئة تفتحه ..

أخيرًا سمعت صوت الـ (هاآآه ! هاآآه !) المميز .. بعده صوت الارتطام المدوّى ، وكانت هذه هى اللحظة المناسبة ..

وثبت إلى الباب وفتحته ، وبحذر سكبت عيناى من الفرجة الضيقة التى أحدثتها ..

كانت غرفة ضيقة جدًا كأنها القبر ، باردة إلى حدّ لا يمكن تصديقه ، جدرانها حمراء تمامًا ، عليها زخارف غريبة غير منسقة ..

أما أغرب شىء فى الموضوع فهو أنها كانت خالية تمامًا .. لم يكن بها أحد ، ولم يكن الوقت كافيًا كى أبحث عن مخابئ فى أى مكان بها ..

تملكنى الهلع بحق ، وفى اللحظة التالية قفّ شعر رأسى ، لأننى لمحت ما يشبه التجسد فى مركز الحجرة .. التجسد الذى يتخذ هيئة إنسان ملقى على وجهه على الأرض ..

أغلقت الباب وعدت لمكانى ، وأنا أنتفض كورقة ..

* * *

حقًا لم يكن الأستاذ بشريًا ..

لم يكن ينتمى لعالمنا ، ولا قواعدنا المادية الصارمة ..

لقد اختفى بلا تفسير من غرفة مغلقة ، وهو لا يجيد ألعاب الحواة ، ولو كان يجيدها ، فلماذا يمارسها وهو وحيد ؟!

وانفتح الباب أخيرًا ليدخل الأستاذ ، وفى هذه المرة لم أستطع حتى أن أتحمل لمسة ساقه لساقى ، وهو يحتك بها فى أثناء عودته لمجلسه ..

كنت أخشاه كثعبان ، ولكنى حرصت على ألا يرى هذا فى وجهى ، علىّ أن أبادر بالفرار عند أول فرصة ، فلا أعود هاهنا أبدًا ..

راح يدندن كعادته محاولاً تذكر إلهامه الأخير .. كتب ما قال فى وريقة صغيرة ، ثم سألنى عن سرّ شرودى ، فابتكرت إجابة مرتجلة :

ـ « إنه الاكتئاب .. الاكتئاب .. ربما الخوف من ألا أقدم جديدًا .. »

نظر فى عينىّ طويلاً حتى كدت أصرخ ، ثم — دون مقدمات — سألنى :

- « هل تؤمن بالجان ؟! »

★ ★ ★

سؤال غريب فى لحظة غير مناسبة على الإطلاق .. قلت له بعد ما بلعت ريقى :

- « الجان مذكور فى القرآن الكريم .. هذه إجابة كافية على ما أظن .. »

عقد يديه على صدره ، واسترخى فى مقعده ، وقال :

- « لنضع السؤال بطريقة أخرى .. هل تؤمن بقدرة البشر على تسخير الجان ؟! »

- « لا أدرى يا سيدى .. لا أدرى .. »

ما الذى يرمى إليه ولأية ورطة يقودنى ؟

قال وهو ينظر إلى السقف :

- « قديمًا كان العرب يعتقدون أن الشعراء يأتيهم الإلهام من جان وادى (عبقر) .. فيما بعد كثر التعبير عن الإلهام بـ (جنية الموسيقا) و(شيطان الشعر) و ... و ... هل تعتقد أن كل هذا خال من الصواب ؟ »

قفّ شعر رأسى إذ فكرت فى معنى هذه المحادثة .. لقد صار الموضوع واضحًا إذن ..

نهض وراح يذرع الغرفة جيئة وإيابًا ويداه فى جيبى روبه ، وقال كأنما يكلم نفسه :

- « هذه هى الطريقة .. هكذا يتحول موسيقار نصف موهوب مثلى إلى عبقرى ، ببساطة حين يتعلم الطريقة المثلى ، وحين يقبل أن يحمله الجان إلى مملكتهم الجهنمية .. إن الأمر غريب لا يصدَّق ، لو رأيته لحسبته نوبة صرعية .. أما بالنسبة لموضوع التجربة ، فالأمر شبيه بالموت .. بانتزاع الحياة من حلقومه .. »

وابتسم ابتسامة خبيثة ، والتفت لى :

- « هل تحسبنى أحمق ؟ لماذا لم أغلق الباب على نفسى ؟ لماذا تركتك تتسلل كما يتسلل القط إلى المطبخ ، ليسرق فخذ الدجاجة ؟ لأنك مثلى تحمل العلامة .. يقولون إن هناك علامة .. وهذه العلامة ترشح المختارين للاتصال .. أنا رأيتها حين قابلتك فى حديقة الفيلا ، وكنت أزمع طردك بشىء من الرفق .. عندها تغيّر مسلكى تمامًا ، كما لا بد أنك لاحظت ؛ لأننى

عرفتك على الفور .. العلامة ! لا شىء يميزنا سوى هذه العلامة ! »

وأشار إلى الشامة الزرقاء فوق حاجبه الأيمن ..

عندها سقط قلبى فى قدمى ، وتحول عمودى الفقرى إلى عمود من الجليد ..

أنا أملك شامة مماثلة .. هذا هو السرّ إذن ..

قال فى شىء من الشراسة :

ـ « والآن لا توجد أنصاف حلول : أنت معنا أم ضدنا ؟ اختر ! »

ـ « لاااه ! »

قلتها وأنا أثب كالزنبرك من مقعدى ، ونظرت لوجهه فوجدت أنه قد تبدّل إلى حدّ مروع .. لم أره من قبل بهذه الشراسة والتوجس ..

وفى ثوان كنت قد اندفعت إلى الباب ، إلى الحديقة ، إلى باب الفيللا الحديدى ، ورحت أضربه وأهزّه فى جنون .. بينما الكلب ينبح ، والبواب يحاول إقناعى بالانتظار حتى يفتح لى بالطريقة العادية المحترمة ..

بعد لحظات كنت قد ابتعدت كثيرًا جدًا عن المكان والزمان والحدث ..

* * *

ومن يومها لم تلمس قدماى شوارع الزمالك ..

صحيح أننى لم أكف عن الغناء ، وكانت لأغنيتيه لمسة لا بأس بها فى حياتى الفنية ، لكنى ـ وهذا مفهوم ـ لم أكن على استعداد قط لرؤية وجهه من جديد ..

كثيرون تساءلوا عن سبب انقطاع صداقتنا ، وأقنعوا أنفسهم بأن الرجل قد انتظر منى أشياء ، وتوسّم فى صوتى أشياء ، لم أحقق منها شيئًا .. وبالتالى قرر أن يتخلص منى ..

لكنى لم أتكلم .. فقط رحت أحاول أن أجد جراحًا بارعًا يزيل تلك الشامة فوق حاجبى .. لكن الأطباء نصحونى بألا أفعل .. إن الجراحة قد تترك أثرًا لا يفضل الشامة فى شىء ..

وحكيت القصة لأحد المطربين ، فأغرق فى الضحك ، وقال :

ـ « هل نجح فى خداعك ؟ إن الأستاذ يداعب ضيوفه مداعبات عملية قاسية ليست هذه أسوأها .. وأعتقد أنه ملّ صداقتك ، فقرر أن ينهيها بفاصل تمثيلى جيد يحكيه لضيوفه فى سهرة ضاحكة .. »

- « والاختفاء ؟ »

- « إنه ثرى ويملك القدرة على بناء أكثر من جبٍ سحرى فى تلك الغرفة .. هذه ألاعيب حواة .. »

لكنى لم أنس قط ، ولم أجد تفسيرًا :.

لو صدقنا كل هذا فكيف حدث التجسد البطىء ؟ كيف تغيرت ملامحه بهذه السرعة ، كأنما أعظم ممثلى الكون ؟

شىء فى روحى يخبرنى أنه كان صادقًا ، وأن ما حدث حدث فعلاً ..

لقد كان الهول ينتظرنى خلف الباب المغلق ..

وما زال ينتظرنى فى منامى كل ليلة !

* * *



الباب الثانى

« مع الْحَطَمَة ! »

تفتحه : « نادية فهيم »

« كنت أراه يزحف فى بطه ، خارجًا من البحر ، يجر جسده بصعوبة .. لكن بإصرار ، عازمًا على أن يقضى ليلته تحت سقفى ، لا يفصلنى عنه سوى باب يملِك هو وحده مفتاحه ! »

- ١ -

ساد الصمت إلا من أنفاسنا ، وقد راح كل منا يتصوّر القصة فى خياله بمواقع تصوير وممثلين مختلفين لا يجمع بينهم إلا (سمير الصياد) ..

تساءلت مدام (ناهد) فى حيرة محاولة التذكر :

- « هل (عزت عبد الحميد) له شامة فوق حاجبه ؟ »

قال (سمير) وهو يتثاءب :

- « له .. لكن لكى تلاحظيها لابد من أن تكونى المعجبة رقم واحد به مثلى .. أو مثلما كنت .. »

قلت وأنا أتأمل الوجوه :

- « لا بأس .. فى القصة الأولى كان الباب هو الممر إلى وادى (عبقر) ، أو ربما دعابة سمجة من ملحن ثرى قاس .. من يحكى القصة الثانية ؟ »

كانت (ناهد فهيم) شاعرتنا الـ (فيمينست) ترمقنا فى شرود ، وهى تريح أصابعها المصبوغة التى تحمل لفافة التبغ على ذقنها .. فلما رأتنى أنظر لها قالت فى ضيق :

- « أنا لا أملك قصصًا مماثلة ، ولا أنوى لعب دور (شهرزاد) .. »

- « لكنك لا تستطيعين لعب دور (محمد على كلاى) .. إن (شهرزاد) كانت قوية بطريقتها ، واستطاعت خداع عتل صفيق مثل (شهريار) بقصصها الممتعة .. هذا لم يتضمن أية تنازلات من أى نوع »

وألحت عليها (ناهد) فى رقة مصطنعة :

- « أرجوك يا (نافى) أن تحاولى ! »

(نافى) ؟ يا له من اسم غريب للتدليل .. (نادية فهيم) قد تحولت إلى (نافى) ، فلن تنتهى الأمسية قبل أن أتحول إلى جثة أو إلى (رِفرِفْ) دون شك ، وكلاهما أسوأ من الآخر ..

حولت (نادية) شفتيها إلى دائرة لتخرج حلقة دخان كاملة الاستدارة ، لا يستطيع أعتى المدخنين الرجال أن يصنعها ، وقالت :

- « حسن .. لدىّ قصة عن باب .. ولا يهمنى ألا تروق لكم ، لأننى لا أستمد ثقتى من الآخرين .. أنا كائن متكامل و (Self-managed) أو هذا هو ما كافحت من أجله طيلة حياتى .. »

- « أصغوا إلىّ إذن .. »

* * *

سعلت الشاعرة الغضبى (نادية فهيم) مرتين ، ثم قالت :

- « متفردة أنا .. متوحدة .. متنائية عن كل القطيع .. لكم حاولت أن ألحق بموكب السارين ليلاً ، لكن خطاى لم تكن كخطاهم ، وقامتى لم تكن كقاماتهم ، وأحلامى لم تكن كأحلامهم ..

لذا تفردت ، وتمثلت مقولة (رانبو) الشاعر الفرنسى : أنا آخر .. Te Suis un autre .. »

تنحنحت ، وبحذر قلت لها :

- « أ .. معذرة .. إننا فى ظروف أسود من قلب الكافر ، وكنا سنقدر لو تكلمت بشىء من التبسيط .. حتى الشاعر يمكن أن يقول كلامًا عاديًا أحيانًا ! »

مطت شفتيها فى اشمئزاز ، وقالت :

- « أرأيت ؟ أنت كذلك واحد من السارين ليلاً .. لهذا أشمخ برأسى فى عليائى - حيث يحلم الطحلب الزغبى - وأزدريكم يا سادة .. صادقة أقولها .. حارّة أقولها .. لا هبة أقولها ! »

* * *

« بحياتى أبواب عشرة ..
وحكايا عن جيش البربر ..
والباب الموصد فى قلبى ..
يتحدى فرسان الغازى ..
من منكم يدنو ؟
أو يجسرْ ؟ »

* * *

ربما تعلمون أننى تزوجت مرتين ، وكان الطلاق هو النهاية فى كل مرة .. إن الرجال لا يحتملون المرأة التى تطالب ألا تُعامل كامرأة ..

هاك يا صغيرتى ما سيحدث :

سيجلس معك ، ويكلمك عن (سارتر) وعن الوجودية ، ويتلو أبياتًا من شعر (لوركا) ، ويقول لك كلامًا كثيرًا عن انبهاره بعقلك ، وأنه - للمرة الأولى - يلقى المرأة التى تبدو كامرأة ، وتفكر كرجل ..

سيقول إن حياتك معه لن تختلف عن سلسلة من الأعياد الفكريّة والمهرجانات العقلانية .. لقد حان الوقت لفهم ذلك الكائن المدعو (حواء) حق الفهم ..

سيقول هذا وأكثر يا فتاة ، ولسوف تصدقين ..

كيف لا تصدقين هذه الكلمات من رجل رزين أنيق فى منتصف العمر ، عركَ الحياة وعركته ؟

ولن يمرَّ وقت طويل حتى تجلسى جواره فى (الكوشة) - إلى يمينه على وجه الدقة - وأنتِ تحلمين كمراهقة صغيرة ..

بعد أشهر - لو حالفك الحظ - ستدركين الحقيقة .. إن الجمال عند الرجل أهمّ من أى عقل .. طبق الفول بالزيت على مائدة الإفطار أهمّ من كل كتابات (سيمون دى بوفوار) .. مباراة الأهلى والزمالك أهم من ندوة شعرية يتكلم فيها (أبو العلاء المعرى) شخصيًا لو أمكن هذا ..

تدريجيًا تدركين أبعاد الخدعة ، وتدركين أن الدور المختار لك هو دور الزوجة لا أكثر ولا أقل ..

ستثورين يا فتاة .. لكنك ستتلقين كلمات قاسية جدًا ، ربما بعض الصفعات كذلك لو كان زوجك شرسًا مثل زوجى الثانى ..

ستكون معاناة طويلة ، حتى يتم الطلاق ، بعدها تقررين ألا تكررى الخطأ ذاته .. لكن سرعان ما يظهر رجل رزين أنيق فى منتصف العمر ، يحدثك عن (سارتر) ويتلو عليك شعر (لوركا) ..

عندها تقولين لنفسك : لعل الأمر مختلف هذه المرة ؟

* * *

تمَّ زواجى الثانى فى بداية الشتاء ..

بعدها رحلت مع زوجى (هشام) - وهو صحفى كما تعلمون - إلى شاليه فى (بلطيم) يملكه أحد أصدقائه .. وكانت (بلطيم) فى هذا الوقت شبه خالية من الشاليهات والمصطافين كذلك ، لأننا كنا فى الشتاء ، وحتى فى فصل الصيف كانت الإسكندرية - خاصة (العجمى) - هى المصيف المرموق الذى يحلم به الجميع ..

كان الشاليه يتكون من أربع غرف .. اثنتان منهما موصدتان بالمفتاح ، وقد تُركت لنا غرفتان هما كافيتان تمامًا ..

وضعنا حقائبنا .. وقررنا الخروج للنزهة على الشاطئ .. بالطبع ارتدى كل منا ثيابًا شتوية ثقيلة ، فالطقس لم يكن يسمح بالمزاح.. وكانت الأمواج ثائرة كأنما ضاقت بالبحر المتوسط ، وودت لو فتح لها أحدهم الباب إلى المحيط ..

مشينا بضع دقائق ، وفى نفس كل منا شكٌ لا يعترف به : هذه العطلة لن تكون ناجحة جدًّا .. صحيح أننا متفردان .. تنائينا عن القطيع .. لكن كل هذا الفراغ الأثيرى لم يكن ليناسبنا حقًّا ..

لقد أنهينا أكثر ما لدينا من كلمات وملاحظات ودعابات ، ونحن نمشى متشابكى اليدين بمحاذاة الشاطئ .. خمس دقائق لا أكثر .. والمفترض أن لدينا أسبوعًا كاملاً ، فماذا نعمل فيه ؟

السماء مكفهرة تنذر بالويل ، والبرد قارس ، وهدير الأمواج يقتل كلماتك ما إن تغادر فاك ..

قلت له بعد ما حاولت إشعال لفافة تبغ ست مرّات :

ـ « فلنعد إلى الشاليه .. »

رفع كفه بمحاذاة حاجبيه ، ونظر للأفق ، ثم قال :

ـ « ثمة إناس هناك .. »

ـ « إناس ؟ غريب ! حسبتنى المجنونة الوحيدة هنا .. »

وبالفعل ازداد المشهد وضوحًا إذ دنونا أكثر ..

كان هناك عشرة من الرجال يقفون على الشاطئ ، ورذاذ الموج يغمرهم من آن لآخر فتحتقن العيون ،

وتسعل الرئات ، تعقبها البصقات .. وكان واضحًا من منظرهم أنهم يؤدون عملاً خطرًا أو يناقشون أمرًا جللاً ..

دنونا أكثر ، ثم سمعت (هشام) يقول لى :

ـ « لا تنظرى ! »

وكان هذا بمثابة أمر لى كى أنظر ، ونظرت ..

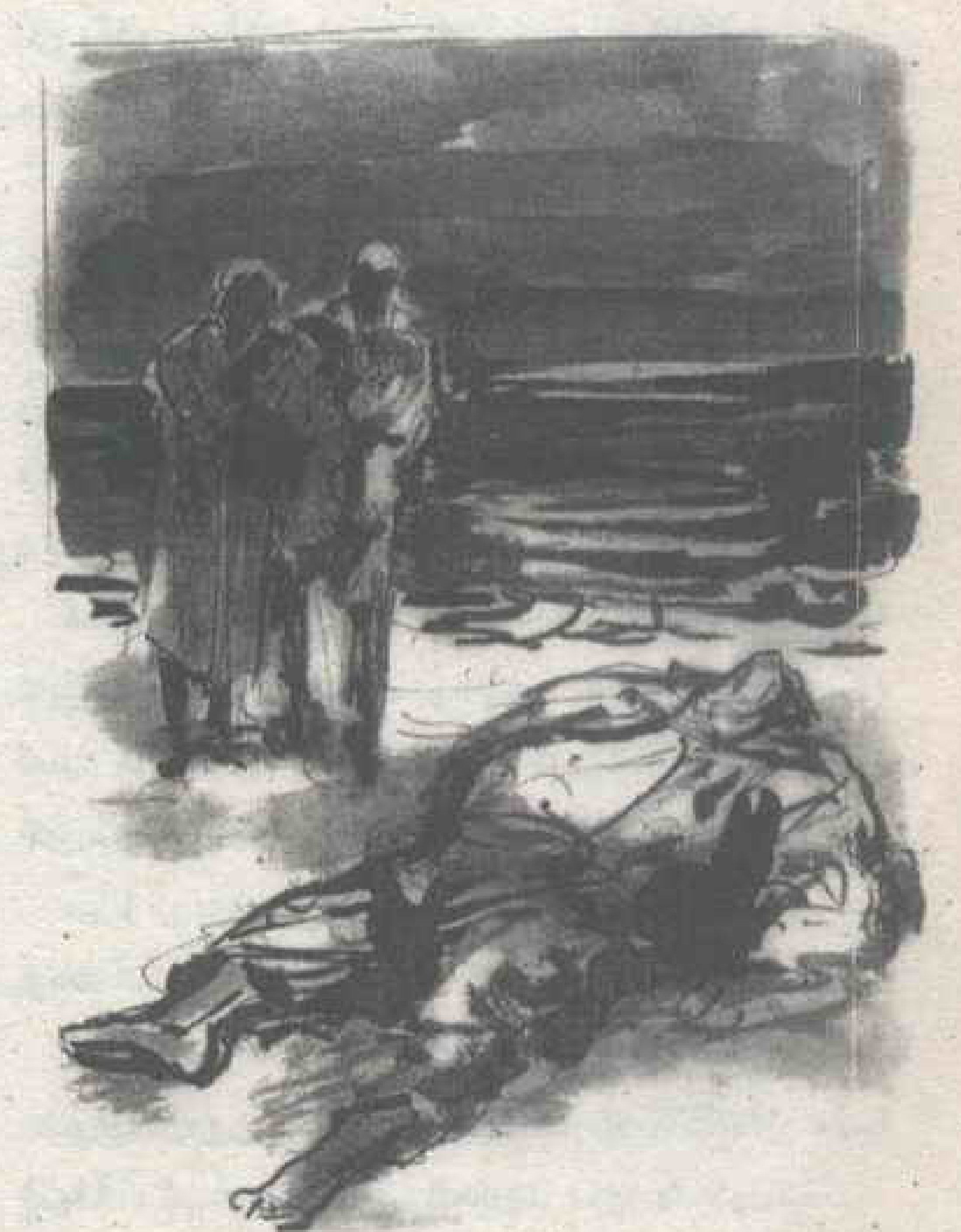
على الرمال رأيت ما يشبه جسدًا آدميًّا فى قميص وسروال ، عارى القدمين مبتلاً تمامًا .. غريق .. هذا واضح .. غريق تأخر إنقاذه كثيرًا جدًّا جدًّا ..

كان منتفخًا ، برز لسانه وارتسمت أوردته كالشجيرات على جلده .. بينما الرغاوى البيضاء تسيل من شفتيه ، وحقًّا لم أر غريقًا من قبل ، ولم أكن سريعة التأثر .. لكن المشهد أثار هلعى بحق ..

ما زال بوسعى أن أرسمه بدقة على الورق لو أردت ..

كنت أقاوم هذه النوازع الأنثوية فى نفسى ـ دليل عبودية قرون طويلة ـ لكنى لم أستطع أن أمنع شهقة ، ثم أدرت ظهرى للمشهد ، وبدأت أتهاتف ..

من وراء ظهرى سمعت (هشام) يتساءل :



رأيت ما يشبه جسدًا آدميًا فى قميص وسروال ، عارى القدمين مبتلاً تمامًا .. غريق .. هذا واضح ..

ـ « كيف نزل البحر فى طقس كهذا ؟! »

صوت خشن يقول :

ـ « لم ينزل يا أستاذ .. لكنها جذبته ! »

ـ « من هى ؟ »

ـ « الْحَطْمَة طبعًا .. ربنا يحفظنا .. »

صوت آخر يقول :

ـ « لابد أنه فى البحـر من أسبوع على الأقلّ .. حالته تقول ذلك »

الصوت الأول يقول :

ـ « لا تحاول وزوجتك المشى على الشاطئ ليلاً .. لا تؤاخذنى .. أنت غريب ، والغريب أعمـى ولـو كـان بصيرًا ! هذا البائس لم يعرف هذا .. أو عرفه ولم يصدّق ! »



- ٢ -

دفنت (نادية) ما تبقى من لفافة تبغها فى المطفأة الزجاجية ، ومدّت يدها إلى العلبة بحثًا عن أخرى ، فطقطقت بلسانى معترضًا :

- « إن هناك وسائل أكثر رحمة للانتحار .. ليس بهذه الكثافة .. »

والحقيقة هى أنها كانت شخصية عُصابية كما خلق العُصاب .. ولو أن (فرويد) نهض من قبره ورآها لمات فرحًا من جديد ! »

أحجمتْ .. فسألتها :

- « كانت لى مغامرة ما مع الحَطَمَة .. إنها نداهة البحر التى تدعو الشباب للحاق بها ، فالغرق .. هل هذه هى القصة هنا ؟ »

هزّت رأسها فى عصبية :

- « لا .. واضح أن حطَمَة (بلطيم) هذه كانت من النوع الذى يخرج يده من تحت الماء ، ليقبض على سيقان من يمشون على الشاطئ .. إن أساليب الحَطَمَات تختلف كما تعلم .. »

* * *

قالت الشاعرة الحانقة دومًا :

- « أفسد هذا المشهد يومنا تمامًا .. كما تتوقعون ..

عدنا إلى الشاليه فتناولنا غذاءنا من المعلبات فى صمت .. لاحظت فى اشمئزاز أن (هشام) يملأ فمه بالطعام كالخرتيت قبل أن يبتلعه .. كان يأكل برقة العصافير حينما كان يخطب ودّى ، وكان يقضم حبة العنب على ستّ مرات .. وبدأت أشمّ رائحة التحوّل إياها ..

صارحته بهذا ، فابتسم ولم يعلّق ..

بعد الغداء لاحظت أنه يسلك أسنانه بعود ثقاب ، ولما فشل مزّق قطعة خيط من كم منامته وراح يمرّرها بين الأسنان وبعضها ، على سبيل الـ (Floss) المرتجل..

صارحته بهذا ، فابتسم ولم يعلّق ..

أحضر جهاز الـ (بيك أب) ، ووضعه على المنضدة ، ثم انتقى أسطوانة لمطربة شابة اشتهرت بأغانيها عديمة المعنى ، وكنت قد جلبت بعدة ألبومات لـ (فاجنر) و (جانيس جوبلن) ..

صارحته بهذا ، فابتسم ولم يعلّق ..

أدرت أسطوانة لـ (فاجنر) ، وجلست منتظرة أن

يبدأ فى الحديث الرومانسى معى ، لا سيما لو كان ذا طابع ثقافى .. لكنه راح يحكى دعابات سمجة عن الحموات الشرسات ، والزوجات المتسلطات ، و ... و ... حاسبًا أن هذا يجعله أقرب لقلبى ، وينهى كل دعابة بـ (هاع هاع هاع هاع !) ..

صارحته بهذا ، فابتسم ولم يعلق ..

جلس بمنامته ورفع قدمًا يريحها على المقعد ، ثم راح يعبث فى أصابع قدميه باستمتاع كما يحبّ الرجال أن يفعلوا ..

صارحته بهذا ، فانفجر فىّ ..

قال لى إنه لم يتلق كل هذا القدر من الانتقادات منذ كان طفلاً فى الرابعة من عمره ، وإن أمه لم تبذل كل هذا الجهد التربوى معه ، وإننى بالتأكيد إنسانة متسلطة قررتْ أن تتحكم فى كل التفاصيل ، فى أول نصف ساعة من حياتنا الزوجية ..

راق لى هذا .. فالحرب هى أرضى التى أشعر فيها براحة حقيقية ..

« من منكم يدنو .. أو يجسر ؟ »

بدأت معركتنا الأولى ، ولم تكن عنيفة جدًا بطبيعة الحال ، لكنها انتهت به صامتًا كالأسماك ، وبى أشعل لفافة تبغ فى عصبية ..

وفى المساء تشاجرنا ثانية مع صوت الأمواج ..

فى الصباح لاحظت فى ضيق أنه يريد أن يلتهم الإفطار دون أن يغسل وجهه ، وهكذا تشاجرنا مرة ثالثة ..

عند الظهيرة تشاجرنا بعنف ، لأنه يريد أن يخرج للنزهة ، بينما أنا مصرّة على أن نجلس ونستمع لـ (فاجنر) ، والأدهى أنه دعا بخراب بيت (فاجنر) وكل أحفاد (فاجنر) إلى يوم الدين ..

ـ « من فضلك .. أريدك أن تكون متحضرًا .. لا أسمح لك بسب (فاجنر) ! »

ـ « هذا خير من أن أسبك أنت أيتها المتسلطة ! »

وغادر الشاليه غاضبًا ، والحقيقة هى أننا أحرزنا سبقًا هائلاً فى عصر السرعة هذا .. لقد حققنا خلال أربع وعشرين ساعة من الجفاء والنفور ما يحققه سوانا فى عشر سنوات !

* * *

عند المساء جاءنى يتودد ، طالبًا الصفح ، لكنى قررت أن أواصل المعركة للنهاية ، وأعلنت رأيى فى أنه يحاول أن يفرض علىّ سيطرته ، وهكذا تشاجرنا للمرة الـ ... لا أذكر كم .. وغادر الشاليه غاضبًا معلنًا أنه لن يمضى الليلة فيه ..

ـ « وأين ستذهب إذن ؟ »

ـ « هذه مشكلتى لا مشكلتك .. »

يا له من نصر ! لقد نجحت فى استفزازه إلى حدّ أن يهجر البيت من ثانى يوم لزفافنا .. وهو نصر لم يتحقق مع زوجى الأول إلا بعد سنة كاملة ..

وهكذا جلست وحدى ، وأدرت أسطوانة (فاجنر) بأعلى صوت ممكن ، ثم رحت أقرأ أشعار (إليوت) ، وأنا أقول لنفسى : حقًا لم أنخدع ، وكانت توقعاتى صائبة .. كل الرجال سواء .. ما إن تغمدى سيفك لحظة حتى يحاولوا أن يحزّوا رقبتك بسيوفهم ..

كلهم يتظاهر بالشىء ذاته ، وكلهم ـ فى الحقيقة ـ الشىء ذاته ..

ألا تبًا لهم !

* * *

بحياتى أبواب عشرة ..

وحكايا عن جيش البربر ..

* * *

على أننى ـ عند منتصف الليل ـ بدأت أشعر بقلق غريب ..

كان السكون تامًا إلا من صوت البحر الثائر ، أتخيل أمواجه السوداء العملاقة كجبال ، فأرتجف هلعًا وأقشعر ..

إن خوفى ضعف .. والأدهى أننى كنت سأغدو أكثر راحة لو كان الرجل بجانبى ، لكنى ضغطت على أعصابى ، وواصلت القراءة ..

وفى الواحدة صباحًا سمعت الصوت من وراء الباب المغلق ..

* * *

كان هناك من يتحرك فى الحجرة الأولى .. سمعته وقد انتهى صخب (فاجنر) .. الحجرة التى لا أملك مفتاحها ..

دنوت من الباب ، وأصخت السمع ، ثم ألصقت أذنى .. وكان ما سمعته هو صوت إنسان يلهث ..

يلهث فى تعب .. يلهث فى جشع للهواء .. يلهث كما يلهث الغرقى !

دنوت أكثر وطرقت الباب بسُلامية سبابتى ، وفى صوت كالهمس تساءلت :

- « من هنا ؟ »

لا ردّ ..

فكّرت فى أن أرفع طبقة صوتى أكثر ، ثم عدلت عن هذا .. لا أريد ألا يجىء الردّ .. سيثير هذا رعبى ، والأفظع أن يجىء الردّ !

كان صوت شىء خشبى يرتطم بالداخل .. أدركت دون عسر أنه مصراع النافذة الخشبى إذ تحركه الرياح ..

أيًا من كان بالداخل ، فقد دخل من النافذة ، والنافذة منخفضة فى مستوى قامة الإنسان ، وتحتها تبة صغيرة من الرمال ..

وأصخت السمع أكثر فأكثر ..

كادت أذناى تمتزجان بالخشب، وأنا أحاول التركيز..

لا جدال فى أن هذا صوتِ لهاث ..

* * *

تمالكت أعصابى، وأشعلت لفافة تبغ بيد مرتجفة ..

لا يجب أن تضعفى يا (نادية) لا يجب .. أنت لست فتاة واهنة هستيرية ..

اتجهت إلى الحقيبة فى غرفتنا ، فانتقيت سكينًا هائلة الحجم ، وخرجت لأرفع صوت الموسيقا إلى أعلى درجة ممكنة ..

الآن أغادر الشاليه .. يجب ألا أبقى فيه لحظة أخرى ..

لماذا لا أبقى فى غرفتى ؟ لأنها لا يمكن غلقها .. فهى لا تغلق إلا بمفتاح ليس معى .. وليس لبابها مزلاج من أى نوَع ..

لماذا لا أبقى فى الشاليه ؟ لأن الشخص - أو الشىء - الموجود فى الغرفة يملك مفتاح الغرفة ! كيف عرفت ؟ لأننى سمعت صوت المفتاح يدور فى الكالون من الداخل !

وضعت على كتفى معطفًا ، وانتعلت حذائى ، وبحذر فتحت باب الشاليه ، شاهرة السكين فى يدى ..

هذه هى فائدة الرجال الوحيدة .. أن يتقدموا الأنثى فى مواقف كهذه ، كى يتلقوا الطعنة الأولى ، ويتركوا للأنثى فرصة الفرار ..

أخيرًا وقفت بالخارج فى الظلام ..

الريح لا تكف عن العواء .. وتمضغ معطفى كما يقول (نزار قبانى) ، والبحر من بعيد يشبه واديًا من الجبال السوداء الشامخة التى لم يرها بشر قبلى ..

درت ببطء حول نفسى ، فقط لأتأكد من أن أحدًا لم يتبعنى ، وهنا حدث الشىء الذى يحدث دائمًا للأبواب ذات كالون (اللاتش) فى الأجواء العاصفة ..

انغلق باب الشاليه وتركنى بالخارج !

* * *

والباب الموصد فى قلبى ..

يتحدى فرسان الغازى ..

* * *

وقفت بضع ثوان عاجزة عن اتخاذ قرار .. إن التعقل لا جدوى منه .. الهلع هو الحلّ الوحيد إذن ..

كنت أرتجف كورقة ، لكننى أقنعت نفسى بأن البرد هو السبب ، وببطء ـــ شاهرة السكين ـــ رحت أدور حول المكان ..

لم يكن الظلام دامسًا ، فثمة مصباح صغير واه عند مدخل الشاليه ، وعلى ضوئه استطعت أن أرى النافذة

المفتوحة التى راح شيشها يهتز مع الريح فى إصرار غريب ..

دنوت أكثر ، وقلت لنفسى :

ـ « لو كان المتسلل كلبًا أو قطًا ، لأمكننى أن أطمئن .. سأثب إلى الغرفة وأفتحها من الداخل .. وهكذا تنتهى المشكلة .. »

لكن ما رأيته على الرمال لم يكن مريحًا ..

فى البدء كانت آثار جرّ كأنما جسد ثقيل يزحف أو يجرّ فوق الرمال المبتلة .. ثم تتحول الآثار إلى قدمين حافيتين غاصتا فى الرمال غوصًا ، وأخيرًا تتوقف الآثار أسفل النافذة ..

هل أدخل ؟

* * *

لا بد أننى وقفت فى البرد والعاصفة أكثر من نصف ساعة ..

لكننى كنت أرتجف لسبب آخر ..

الغريق بوجهه المنتفخ ، ولسانه البارز .. كنت أراه يزحف فى بطء ، خارجًا من البحر ، يجرّ جسده بصعوبة لكنه بإصرار .. عازمًا على أن يقضى ليلته

تحت سقفى ، لا يفصلنى عنه سوى باب يملك هو وحده مفتاحه ! كنت أراه رأى العين الآن ..

فى النهاية ـ وبعد وقت طويل ـ لمت نفسى على جبنى ، واتجهت إلى النافذة ، وقد قررت أن أثب إلى الداخل ، وليكن ما يكون .. أمامى حلان : إما أن أبقى حيث أنا للأبد وأتجمد ، وإما أن أجرب حظى بالداخل ..

استجمعت قواى ، ووثبت إلى الداخل ، حيث الظلام الدامس ..

مرت لحظة لم أدر ما هى ، ثم وجدت يدًا مبتلة قاسية تمسك بمعصمى الذى يحمل السكين .. بإصرار وغلظة ..

هنا صرخت .. صرخت .. صرخت ..

* * *

وحين استعدت وعيى كنت جالسة فى غرفتنا أرتجف .. وكان (هشام) واقفًا أمامى يجفف شعره المبتل بمنشفة ..

قال لى دون أن أفهم تمامًا ما يقول :

ـ « حمقاء أنت حقًا ! كدت تفتكين بى بهذا السكين .. إن للخلاف حدودًا ! »

ـ « أنت .. أنت .. كيف جئت ؟ »

هز رأسه فى لا مبالاة :

ـ « لم أذهب قط .. لم أجد مكانًا أمضى فيه ليلتى ، فدرت حول الشاليه وفتحت نافذة الغرفة المغلقة ، ودخلتها .. منعنى كبريائى من أن أعود كى أستسمحك للبيات ! »

ـ « و .. وآثار الأقدام .. والبلل ؟ »

ـ « لقد حاولت أن أجرب السباحة ليلاً .. لكنى وجدت الأمر أكبر منى .. توغلت فى الماء حتى خصرى ، ثم عدلت عن ذلك ، وعدت إلى الشاليه وقد انقطعت أنفاسى .. »

ـ « و .. والمفتاح ؟ »

ـ « وجدت نسخة منه داخل الغرفة ، وأولجتها فى الكالون لأتأكد من أنها صالحة له .. وكنت على وشك الخروج إليك لولا أن وجدتك تثبين لى من النافذة حاملة سكينًا ! »

ساد الصمت ، إلا من أنفاسنا ، ومن هدير الموج ..

أخيرًا سألته :

- « هل جننت حتى تنزل البحر فى ساعة كهذه ؟ »

- « لا أدرى .. لقد كان النداء أقوى منى ، وشعرت بأن الأمر سهل جدًا هين جدًا .. للحظة حسبت أننى قادر على قهر البحر ذاته .. »

وبخجل ابتسم ، وأضاف :

- « لا أدرى .. لكننى أحسب أن (الْحَطَمَة) نادتنى ! »

قلت له وأنا أنزع معطفى الذى صار باردًا كالرصاص :

- « إن لى مطلبًا واحدًا لا مجال لك كى ترفضه .. »

- « وما هو ؟ »

- « أن نعود إلى (القاهرة) غدًا ! »

* * *

فيما بعد ازدادت علاقتنا سوءًا ، وتم الطلاق بعد أربعة أشهر ..

إن (هشام) رجل ، ولهذا كان يحمل كل عيوب الرجال ومنها الغرور ، الذى يدفع رجلاً للسباحة فى البحر عند منتصف الليل فى الشتاء ..

هل حقًا نادته (الْحَطَمَة) ؟ حتى اللحظة الأخيرة كان مصرًا على هذا ، أما أنا فكنت مصرّة على أنه مجنون ..

لكن خلف الأبواب المغلقة قد يرى المرء ويسمع أى شىء ..

ربما - لهذا - أستطيع أن أفهمه إلى حدّ ما !

* * *



الباب الثالث

«جريمة شبه كاملة»

يفتحه : « محمود عونى »

« كان يلهث بحق ، مرهقًا بحق .. لكن جسده لم يكن هو الذى يؤدى كل هذا العمل الشاق .. كان عقله هو الذى يعمل ويأمر .. »

- ١ -

انتهت قصة (نادية) ، فابتسمت مدام (ناهد) بوجهها المرهق المتعب المجعّد ، والذى أظهر الماء حقيقته ، وقالت :

- « حقًا كانت تجربة رهيبة يا (نافى) .. ومن الحظ الحسن أنك لم تجنّى ذعرًا .. »

ارتجفت يدا الشاعرة ، وهى تفتح حقيبتها بحثًا عن مرآة وقالت :

- « أنا لا أجنّ ذعرًا لأننى ثابتة الجنان .. الآخرون فقط يفعلون ! »

نظرت فى ساعتى .. كان الفجر دانيًا ، ومعه يوجد احتمال لا بأس به فى انتهاء معاناتنا .. أشرت إلى الأستاذ (محمود عونى) ، وقلت :

- « أعتقد أن الوقت قد حان لسماع قصتك يا سيدى .. »

ابتسم بوقار ، وداعب سالفه الأشعث غريب الشكل مفكرًا ، ثم قال :

- « قصة عن باب مغلق ؟ كنت طيلة الوقت أفكر فى واحدة لكنى لم أجد .. لكننى أعرف قصة حدثت لشخص أعرفه .. هل هذا مسموح به ؟ »

- « طالما كانت شائقة .. »

- « أعتقد هذا .. والآن اسمعوا لما أقول .. »

* * *

قال الأستاذ (محمود عونى) :

- « عرفت (إبراهيم الغنّام) من فترة طويلة .. ربما منذ عام 1936 .. كنت وقتها فى العشرينات من عمرى ؛ شابًا مجنونًا بالصحافة ، وكان هو من أعظم مديرى التحرير الذين عرفتهم الصحافة المصرية ..

ارتقى الرجل بفنه إلى درجة دانية من الكمال ، وجعل من الصحف التى عمل بها معرضًا مبهرًا للخبر حين يتزاوج مع الصورة والإطار الأنيق ، وأعتقد أننى لو لم أعرفه لكنت بالتأكيد فى موضع آخر من عالم الصحافة ..

* * *

فى الآن ذاته عرفت (صبحى محجوب) ، وهو من جيل (فاروق) ، لكنه يختلف عنه اختلافًا بالغًا .. لقد قابلته للمرة الأولى فى أحد المقاهى التى يرتادها الرعاع ، لماذا ارتدتها أنا ؟ ليس لأننى من الرعاع إذا خطر لكم هذا ؛ ولكن لأننى صحفى .. وعلىّ أن أذهب لكل مكان وأعرف شيئًا عن كل شىء ..

وفى مقهى من تلك المقاهى ، جلست أدوّن بعض الملاحظات فى مفكرتى ، وأعدّ أوراقى .. حينما سمعت من المنضدة المجاورة صوتًا ساخرًا يقول :

- « هذا هو الصحفى الحقّ ! فلنحييه ! »

نظرت مدهوشًا ، لأجد رجلاً أصلع بادنًا ، تلتمع صلعته بالعرق ، ويتطاير اللعاب من شفتيه الغليظتين ، ويرتدى بذلة مليئة ببقع الزيت لا بد أن (تحتمس الثالث) ارتداها فى زفافه .. كان يدخّن (الجوزة) فى نهم ، ولا يكفّ عن البصق على الأرض كى يمسح البصقة بحذائه العتيق ..

لما رأى دهشتى واستعدادى للقتال ، قال :

- « لا تتضايق ! أنا صحفى مثلك ، وأعرف الصحفى حين أراه ؛ لكن دعنى أقل لك إن الحماس لن يقودك بعيدًا .. إن هذه المهنة لا ترحم ! »

هذا صحفى ؟ غريب حقًا ..

بالتأكيد حين دخلت عالم الصحافة لم تكن هذه الصورة فى ذهنى .. إن كل شاب يدخل عالم الصحافة لا يرى سوى صورة (التابعى) فى ذهنه ، وفيما بعد صارت صورة (محمد حسنين هيكل) الشبيه بلورد إنجليزى نبيل ، هى الصورة التى يحلم بها الشباب .. أما هذا الشىء الذى يخاطبنى ؟

قال لى :

- « أنا (صبحى محجوب) .. الماشى فى الظلال ، والذى يثير نفور الجميع .. »

- « تشرفنا .. »

سألنى عن جريدتى ، وعن مجال عملى ، وطلب منى أن أدعوه إلى حجر آخر مع كوب شاى .. هكذا إذن ! يتسوّل ببساطة ..

سألنى وهو يشفط الشاى فى هيام :

- « هل تعرف الكلب (إبراهيم الغنام) ؟ لا بد أنك معجب به .. »

تحفزت فى عصبية :

- « أنا لا أسمح لك بـ ...... »

ضحك فى مرارة كاشفًا عن أسنان تساقط أكثرها ، وما بقى منها لم يعد جميلاً ، وقال :

- « دعك من حماس الشباب الأحمق هذا .. هذا الرجل هو ببساطة أقذر لصّ عرفته المهنة ، وهو مصاص دماء يعيش على جهود الآخرين وعرقهم وربما دمائهم .. »

وفى اللحظات التالية ، حكى لى بالتفصيل ما لم أعلمه قط عن الرجل ..

لقد بدأ الرجلان بداية واحدة ، لكن ما لم أعلمه عن (الغنام) هو أنه كان مستعدًا لكل شىء وأى شىء ، وكان يسرق أفكار صديق عمره ببساطة وينسبها لنفسه ، ويدسّ له عند كل الجهات بما فيها البوليس السياسى نفسه ، وهكذا بدأ (الغنام) يصعد السلم بسرعة ، ومع كل مرة يصعدها كان (صبحى) يهوى درجة أو درجتين ..

ثم ارتكب (صبحى) خطأ عمره : تزوج ، وهكذا هبط درجة فى السلم الاجتماعى ، ثم أنجب وهكذا هبط درجة أخرى .. وهكذا حدث له بالضبط ما توقعه فيلسوف الانفجار السكانى (مالتوس) ..

لا يدرى (صبحى) متى ولا كيف وصل لهذه النتيجة .. صديق شبابه مدير تحرير لامع يتهافت الشباب لسماع حرف منه ، بينما هو - (صبحى) - قد صار رائد مقاه ، يُطرد دائمًا من أى مكان يتواجد فيه أكثر من عشر دقائق ..

وجاء العرض من (الغنام) تحت ستار مساعدة صديق فى مأزق ..

سيعمل (صبحى) معه ، ولن يظهر فى الصورة أبدًا .. فقط سيستمد منه الأفكار الجيدة الجديدة - وما أكثرها عند (صبحى محجوب) - ويقدمها للناس باعتبارها من أفكاره هو .. والمقابل ؟ طبعًا بضعة ملاليم لا تشبع ولا تغنى من جوع ، لكنها على الأقل تبقى أطفاله أحياء ..

الآن صارت لدى (إبراهيم الغنام) مؤسسة كاملة من الصحفيين الشبان المتحمسين ، وثلاثة من المترجمين الشيوخ ثقيلى الوزن ، وصحفى عجوز هو (صبحى) ، وكان كل هؤلاء يعملون ليل نهار مقابل ملاليم أو كلمة مديح بسيطة .. وفى النهاية تخرج الجريدة أو المجلة فى أبهى صورة ممكنة تحمل

للقارئ نبأ أن (مدير التحرير) هو (إبراهيم الغنام) ؛ ومن النادر أن يلاحظ رجل الشارع اسم مخرج الفيلم السينمائى أو مدير تحرير الجريدة .. لكن القاعدة تتحطم مع مخرجين مثل (هتشكوك) أو (يوسف شاهين) أو (فيللينى) ، ومع مدير تحرير مثل (إبراهيم الغنام) ..

كان (صبحى) يكره الرجل بحق .. يحقد عليه بحق .. يحتاج إليه بحق .. يعجب به بحق ..

علاقة معقدة جدًا ، تحتاج إلى أديب من طراز (دستوينسكى) كى يعبر عنها بدقة ..

* * *

أما ما حدث بعد هذا بشهرين ؛ فأمر لم أره ، لكنى قرأته .. ولا أستطيع الإفصاح عن مصدر قراءتى له قبل أن أكمل القصة ..

* * *

كان (صبحى) يغلى حقدًا كما قلنا ؛ وكان فى ذهنه يضع الخطة تلو الخطة للانتقام ؛ حين اتصل به (إبراهيم الغنام) من (الإسكندرية) يطلب منه أن يوافيه هناك ..

كانت المكالمة فى المقهى بالطبع لأن (الغنام) يعرف

بالضبط أين وكيف يجد فريسته ، وجاء القهوجى الشاحب (سنقر) يخبره بأن هناك من يريده على الهاتف ..

رفع السماعة فى توجس ، فسمع (الغنام) يصيح فى مرح :

- « هذا أنت أيها العجوز ! لم لا تنس أعباءك وتجىء إلى (الإسكندرية) بعض الوقت ؟ »

- « ليس معى ما يكفى لنسيان الأعباء كما تعلم.. »

- « لا عليك .. الجيب سدَاد .. إننى بحاجة إليك فى بعضِ أمور مهمة .. إن رأيك لم يعد الاستغناء عنه ممكنًا .. »

وكانت هذه هى البداية لموقف اعتاده (صبحى) وعرفه جيدًا .. عملية اعتصار الأفكار النهمة من صديقه القديم المتظاهر بالمودّة ..

وهكذا ذهب إلى بيتـه المتهالك الضيق ، فقال لامرأته التى عصبت رأسها (علامة النكد الأزلى) إنه سيقضى يومًا أو يومين فى (الإسكندرية) وركل الطفل الذى ركل أخاه الأصغر ، ثم اتجه إلى الباب دون أن يضيف كلمة واحدة ..

* * *

جلس فى القطار يجفف العرق المحتشد على جبينه..

كان الألم حادًا ضاغطًا عاصرًا .. وكان يعرف إلى حدّ ما ما يعنيه هذا الشعور الممضّ خلف عظمة القصّ ..

هى ذى سنوات من الفقر والإحباط والغضب المكبوت ، تجتمع كلها فى شرايينه التاجية لتسدّها ..

ها هو ذا القلب الذى لم يذق لحظة سعادةً واحدة ، يحتجّ فى صمت أولاً ، ثم يصرخ ثانية .....

ها هو ذا ينذره بالصمت للأبد ..

وعندما تجاوز القطار (دمنهور) ؛ كانت النوبة قد انتهت ، لكنها أسلمته إلى إعياء شديد ، لم يفق منه إلا حين شمّ رائحة محطة (الإسكندرية) المميزة ..

كان (إبراهيم الغنام) يملك شيئًا هو ما بين (الشاليه) و (الفيللا) فى (العجمى) ، وفى ذلك الوقت كان (العجمى) شاطئًا شبه مغلق ترتاده الصفوة ، ويهابه العامة بشدّة .. ولم يكن الوقت وقت اصطياف ، لذا لم يندهش (صبحى) لكل الفراغ الذى قابله به الشاطئ المظلم ..

أخيرًا وجد الشاليه / الفيللا ، ولم يكن المدخل مغلقًا ، لذا انساب إلى الداخل ، وقرع الباب حتى فتحه (إبراهيم الغنام) ..

ولم يكن هذا الأخير مسرورًا جدًا ..

* * *

ـ ٢ ـ

قال (محمود عونى) :

ـ « لم يكن (الغنام) بادى السرور بهذه الزيارة ، لكنه رحّب بصديقه القديم ، ودعاه إلى الداخل .. قال شيئًا ما عن أنه كان يتوقع قدوم (صبحى) نهارًا .. لم يتوقع كل هذا الحماس المبالغ فيه ..

فى النهاية اضطر إلى القبول بالأمر الواقع ، ودعاه ليجلس ..

كان يرتدى منامة حريرية ، مما يدلّ على أنه استعدّ لدخول الفراش ، وكانت هناك منضدة عليها لفافة ورقية مفتوحة بها كائن أسود عذب الرائحة ، يسمونه (كباب) .. وكانت هناك سلة أنيقة بها بعض التفاح طوّح بواحدة منه إلى (صبحى) ، ولم يناوله السكين بالطبع ..

جلس فى أريكة مريحة ، وقال :

ـ « الموضوع ـ ببساطة ـ هو مجلة جديدة يريدون أن يعهدوا لى بأن أكون مديرًا لتحريرها ، والأمر ليس بالسهولة التى يبدو عليها ، لأننى مكلف

بوضع تصورٍ لكل شىء .. كل شىء بدءًا بشكل الغلاف وانتهاءً بمن يكتب ومن لا يكتب .. والمطلوب ألا يشبه هذا العمل أى عمل سابق .. »

ثم مدّ يده فى جيب منامته ، وأخرج مظروفًا صغيرًا :

- « هاك ! خذ ! »

وطوّح به فى الهواء ، لكن (صبحى) لم يكن ممن يجيدون لعب التنس ، وارتطم المظروف بكتفه ليسقط أرضًا ..

قال (الغنام) وهو يعود لاسترخاء جلسته :

- « هذه أتعاب مقدّمة .. وينتظرك مظروف مماثل بعد الانتهاء من كل شىء .. من المفروغ منه أننا لن نعود إلى (القاهرة) إلا بعد ما نضع تصوّرًا شاملاً محكمًا لكل شىء .. »

وأشار لرأسه بسبابته :

- « نريد بعض (المخمخة) إذن .. »

قضم (صبحى) نصف التفاحة مرة واحدة .. وراح يلوكها بصعوبة بأسنانه المنهكة ، وتساءل :

- « هل لهذا جئت هاهنا ؟ »

وكان يعرف الإجابة .. بالطبع ليس لهذا فقط .. لكن (إبراهيم الغنام) قال فى جديّة :

- « بالطبع .. لقد فررت من كل أعبائى .. لا أحد يعرف أننى هنا ، ولسوف تنقلب (القاهرة) رأسًا على عقب بحثًا عنّى ؛ لكنهم لن يفكروا فى هذا الشاليه .. إننى متفرغ للتفكير العميييق .. »

لم يكن (الغنام) متزوجًا .. ربما تزوج مرة وطلق ، ولشدَّ ما حسده (صبحى) على هذا .. لهذا يحتفظ بنضارته وخلوه من الهموم .. صحيح أن المرء يتزوج ، كى لا يكون وحيدًا فى شيخوخته ، لكن (الغنام) لن يكون وحيدًا أبدًا .. سيجد دومًا من يهتم به ، ويقدّم له ملعقة كبيرة من شراب السعال حين يتعالى سعاله ليلاً.. حتى لو ابتاع هذه الخدمات بماله..

قال (صبحى) وهو يلقى ما تبقى من التفاحة فى فمه :

- « معذرة .. لكنى لا أستطيع التفكير بمثانة مليئة .. »

- « هذا حقك البشرى .. (التواليت) على يسارك عند نهاية السلم .. »

ونهض (صبحى) متثاقلاً .. فوجد درجًا خشبيًا ينزل لأسفل إلى ما يشبه القبو ..

كان الحمام كما وصفه الرجل .. وكالعادة كان عطرًا فاخرًا به مرآة هائلة الحجم ، تراصت على رفها زجاجات من العطور و (اللوسيون) تفوق ما فى أى متجر كبير ..

غسل (صبحى) وجهه المبتل بالعرق من وعثاء السفر ، ورشّ عطرًا ما من زجاجة تحت إبطيه ..

بدأ ينتعش ، وأضافت المثانة الفارغة انتعاشًا إلى انتعاشه ، فغادر الحمام ، عازمًا على العودة إلى جلاّده ..

هنا رأى الغرفة المفتوحة أمام الحمام ..

* * *

كانت الجدران عارية تمامًا إلا من القرميد ، ومن السقف تدلّى مصباح متهالك .. أضاءه فوجد أن الغرفة أقرب إلى حمام آخر تحت الإنشاء .. بها صنبور ماء يتدلى من ماسورة عارية ، وبها فتحتا صرف فى الأرضية ..

كانت هناك شكائر من الأسمنت مكدّسة فى الركن ، وعدة صفوف متراصة من القرميد .. كما كانت هناك أدوات بناء : رفش وتلك الأداة التى يستخدمها البناءون فى وضع الأسمنت .. وكانت هناك كمية لا بأس بها من علب تحوى بلاطًا قيشانيًا - قبل عصر السيراميك طبعًا - وكل ما يوحى بأن هذه الغرفة ستتحول إلى شىء آخر ، ما إن يسمح الوقت بذلك .. هذه الغرفة بدورها توحى بشىء ما لا يدرى كنهه ..

تأمل المكان فى اهتمام ، ثم غادره بعد ما أطفأ النور ..

كان الباب مواربًا ، لذا تركه كما رآه ، وصعد فى الدرج إلى حيث كان (إبراهيم الغنام) يفرز محتويات ملف كبير ..

- « شفيتم ! »

قالها باسمًا فى سخرية ، ثم دعاه إلى الجلوس بجواره ..

- « أريدك أن تدرس هذه الأوراق .. كن حرًا تمامًا فى التعديل أو الحذف .. »

هنا رفع (صبحى) وجهه فى تحدّ ، وقال :

- « ومن قال إننى قبلت ؟ »

بُهت (الغنام) قليلاً ، ثم هتف :

- « لقد تقاضيت أتعابك ! »

- « لم أمسَ المظروف .. أعتقد أنه فى موضعه على الأرض لو لم أكن مخطئًا .. وعلى كل حال أنت لم تناولنى شيئًا فى يدى، بل ألقيته فى وجهى إلقاءً »

وضع (الغنام) الملفَ جانبًا ، وقال بتؤدة :

- « (صبحى) .. أنتَ لا تملك الرفض .. أنا بحاجة إليك ، وليس من المعتاد أن أكرر هذا مرتين .. »

- « وأنا مصرّ على الرفض .. »

- « والأسباب ؟ »

ابتسم (صبحى) فى مرارة ، ونظر إلى حيث كان المظروف :

- « كم فى هذا المظروف ؟ »

- « خمسون جنيهًا .. لماذا تسأل ؟ »

- « لأننى سئمت الاستسلام .. لقد استسلمت لك مرارًا ، وصنعت نجاحك ، لكن المكافأة فى كل مرة كانت بضعة ملاليم .. حتى الكلاب قد تعضَ صاحبها إذا ما بالغ فى إساءة معاملتها .. »

- « خمسون جنيهًا ؟! يا لك من جشع ! إن طيبة قلبى مع صديق قديم تدفعنى إلى إذلال نفسى دون مبرر .. أنت لم تر هذا المبلغ ، وفى الغالب لن تراه أبدًا .. هل تعرف السبب ؟ »

- « إننى أتحرق شوقًا لمعرفته .. »

اشتعل الغضب نارًا فى عينى (الغنام) وصاح :

- « لأنك أحمق ! لأنك بلا مواهب ولا قدرات .. إن الحياة تحسن اختيار من تهبه ثمراتها .. فقط الموهوب والذكى والبارع ينالون كل شىء ، بينما أمثالك ينحدرون .. ينحدرون .. ولا يكفون عن الشكوى من الظلم الفادح الذى يلقونه .. لقد استحقوا ما حدث لهم ، ولا ظلم هناك .. دعهم ينعموا بلذة الشعور بالاضطهاد .. دعهم يمارسوا (البارانويا) على أوسع نطاق .. إنهم يستحقون كل شىء لأنهم حشرات .. وأنت مجرّد حشرة لا يجب أن نتملقها أكثر من اللازم كى لا تلدغنا ! »

وأخذ شهيقًا عميقًا كى يواصل الهجوم :

- « (صبحى محجوب) .. إننى أخفض عرضى إلى ثلاثين جنيهًا .. وأعرف أنك ستقبلها مهما تعاليت ..

لماذا ؟ لأنك بحاجة إليها .. لأن أطفالك جياع ، ولأن أباهم جاهل معدوم الموهبة .. ولأن ...... »

لم يكمل العبارة التالية ، لأن (صبحى) غرس السكين فى صدره حتى المقبض ..

★ ★ ★

الآن صار المشهد دراميًا بحق ..

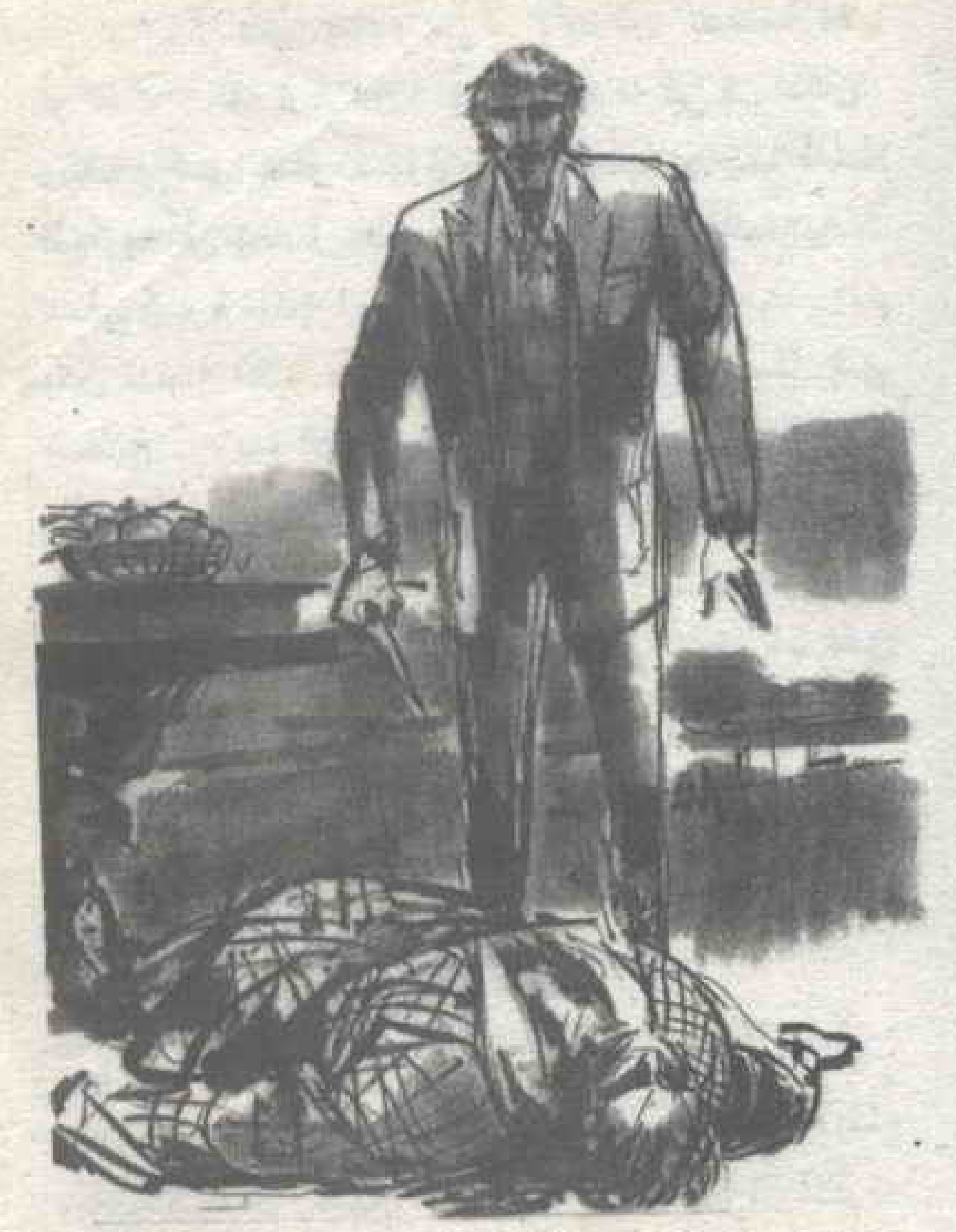
يقف (صبحى) ذاهلاً يرمق الرجل الأنيق الممدد على الأرض ، ينزف دمًا من صدره بلا انقطاع ..

لم يحتج إلى أن ينحنى ليتحسس صدر (إبراهيم) أو نبض معصمه .. فالموت شىء يمكن معرفته بالسليقة ..

ومن الغريب أنه لم يفقد ترتيب ذهنه .. لقد أثار الرجل أعصابه إلى حدّ غير مسبوق ، وصارحه بكل ما كان كلاهما يعرفه .. لكنه يداريه خلف قناع الحضارة والتهذيب ..

الآن صار الموقف تجريديًا تمامًا .. مشادة انتهت بضربة سكين كما يحدث فى مقهى (شيحة) ، لا فى بيت مدير تحرير كبير ..

يمكنه الفرار .. لا أحد يعرف أنه هنا ..



يقف «صبحى» ذاهلاً يرمق الرجل الأنيق الممدد على الأرض ، ينزف دمًا من صدره بلا انقطاع ..

لكنه كان ذكيًا بما يكفى .. لا بد من بصمة هنا أو هناك .. لقد ترك دون تحرز بصماته فى كل مكان ، ويحتاج إلى عشر سنوات كى ينظفها جميعًا ، هذا طبعًا بعد أن يحصل على دكتوراة فى العلوم الجنائية ..

فى قرارة نفسه لم يكن نادمًا إلى هذا الحدّ .. لم يكن ندمه أكثر من ندمه بعد قتل فأر تسلل إلى المطبخ .. ربما الاشمئزاز هو الشعور الطاغى الآن ..

وهكذا تركز فكره فى الوسيلة الوحيدة للخروج من المأزق : إدفن أخطاءك .. الوسيلة التى توصل إليها (قابيل) وهو يتأمل جثة أخيه (هابيل) لكن لم يكن هناك غراب هاهنا ..

* * *

الغرفة التى أمام الحمام ..

إنها توحى بشىء ما ..

* * *

ولم يكن (صبحى) رياضيًا قط ..

بالأحرى كان يملك جسد شيخ وقلب مومياء وعضلات طفل رضيع .. وكان داء السكرى قد فتك به بشدة ، مع تدخين (الجوزة) المستمر ..

لهذا لم يكن جرّ جثة (الغنام) عملاً شديد الإمتاع ، لم يكن نزهة مريحة .. كان العرق ينساب على صلعته وتحت إبطيه ، واستطاع أن يشمّ رائحة العطر الذى سرقه فى الحمام ، تفعم الجوّ .. إنها حقًا رائحة (إبراهيم الغنام) المميزة ، حتى كأن الرجل يملأ المكان ..

هو ذا يهبط فى الدرج الخشبى ..

يجرّ الجسد جرًا إلى الغرفة التى تنتظر استكمال بنائها ..

* * *

لا أحد يعرف أن (الغنام) هنا ..

لا أحد يجىء لهذا الشاليه ..

من المعروف أن (الغنام) كثير التنقل ، كثير الاختفاء ، كثير السفر إلى الخارج ..

لا توجد جريمة دون جثة .. لا بد من جثة قبل البحث عن قاتل ..

هذه هى المعطيات ، وعليه أن يستفيد منها ..

* * *

فى كثير من العسر جرّ الجثة إلى الداخل .. تعلّق الباب فى خفّ إحدى القدمين ، فحرّره لكن الباب انغلق وراءهما ..

لا بأس .. إنه بلا قفل أصلاً ..

أضاء النور الواهن ، واستعد كى .....

هنا أطبقت عليه يد الجثة !

هلع ونظر مذعورًا إلى ساقه ، ليجد (الغنام) وقد فتح عينيه فى شراسة يعتصر ساقه بيد من حديد ، ويحاول أن يمسك بالساق الأخرى ..

كان المشهد مريعًا أشبه بالخضّات التقليدية فى أفلام الرعب ، حين يعود الشرير الميت للحياة فجأة قرب نهاية الفيلم .. فقط ليتضح أنه لا يموت بهذه البساطة ..

- « اتركها يا أحمق ! »

وبصعوبة مدّ يده إلى حيث كان الرفش .. تمكن من القبض عليه .. رفعه عاليًا ثم هوى به مرتين ..

* * *

من جديد عاد الهدوء واستتب الأمن ..

عاد فؤاده إلى معدل خفقانه الطبيعى ، فجلس جوار الجثة يلهث :

أخيرًا استردّ قواه ، فنهض ..

كانت هناك قصعة فارغة ملأها بالأسمنت من جوال هناك ، وجرّها جرًا إلى ما تحت صنبور الماء ..

الآن يجيء دور العمل الفنى البارع ..

جرّ الجثة إلى الجدار القرميدى وأراحها هناك ، بحيث تحتل أقل مساحة ممكنة .. ثم مزج الأسمنت بالماء .. لو كان هناك رمل لصنع (مونة) رائعة بحق ، لكن لا وقت للتدقيق فى قواعد علم الخرسانة على كل حال ..

وضع طبقة من الأسمنت على الأرض تمتد فى خط بطول الجدار ، ثم بدأ يرصّ قطع القرميد متلاصقة فوقها ..

هذه هى خطته .. لقد صنع جدارًا جديدًا يبتعد عن الجدار القديم بنصف متر . وما بين الجدارين وجد فراغ يصلح قبرًا دائمًا للجثة ..

لن يجد أحد الجثة إلى يوم الدين .. ربما لو أزالوا الشاليه لوجدوها ؛ لكن أحدًا لن يلاحظ أبدًا أن طول الغرفة قد انكمش نصف متر دون سبب واضح ..

- « كل شىء ينكمش فى الشتاء ! »

وراقت لـه الدعابـة ، فطفـق يضحـك ، ويواصـل مهمته فى الضوء الخافت المؤذى للعينين ..

ستفتش الشرطة كثيرًا ، وستبحث فى الشـاليه ، لكنهم لن يجدوا مـا يدلّ علـى أن (الغنـام) أمضـى ليلتين هنـا .. هـو سيزيل كل الآثـار وسيأكل الكبـاب والتفاح ويخفى الأوراق فى حقيبته ..

الآن يضع صنفًا ثالثًا من القرميد ، ويزيد من كمية (المونـة) .. لحسن الحظ أن الصنبور هنا .. كـان سيحتاج لنقل الماء من الحمام وياله من جهد !

لسوف يوضع اسم (إبراهيم الغنام) فى قوائم مـن (خرجوا ولم يعودوا) ، وبعد أشهر عدّة سينسـى الناس من كان ..

بصمات ؟ لن يهتم أحد برفعها ، لأنه لا جثة هنـالك .. وحيث لا توجد جثة لا توجد جريمة .. سيبدو الشـاليه فى نهاية عمل (صبحى) كأنما لم يزره أحد منذ عام ..

صف سادس من القرميد .. الجدار يعلو .....

كـان يلهث بحقّ .. مُرهقـًا بحقّ .. لـكن جسـده لم يكن هو الذى يؤدى كل هذا العمل الشاقّ .. كـان عقله هو الذى يعمل ويأمر ..

* * *

السادسة صباحًا ..

يا لها من ليلة ليلاء !

ونظر لأعلى ليجد أن الجدار قد علا تقريبًا .. حتـى لامـس السـقف .. كـانت آخـر أربعـة صفـوف هـى الأصعب ، وقد احتاج إلى الصعود مرارًا على خمس شكائر من الأسمنت كدّسها فى شـكل سلم .. ربّـاه ! لم يحسب قط أن شيكارة الأسمنت لهـا هـذا الثقـل المريع .. لا يمكنك أن تصدق هذا ما لم تحاول جرّ واحدة على الأرض ..

كان يدرك أنه سيمرض بشدّة بعد هذا .. سيلازم الفراش شهرًا أو أكثر .. ربما .....

* * *

هنا بدأ الألم ..

لم يكن تدريجيًا كمـا اعتـاده ، بل هـو ألـم مفاجئ صارم قاهر يتحين الفرصة فى نهم .. وقد اعتـاد هذا الألم وعرف مصدره جيدًا ..

وأصابه الذعر وترك ما يقوم به ..

كلا .. لن يموت هنا .. لن يموت بهذه البسـاطة .. عليه أن يهدأ قليلاً .. لكن محاولة الهدوء كانت تحتاج

منه إلى جهد يزيد العناء على قلبه .. ما كان لهذا القلب أن يتحمل كل هذا الانفعال والجهد العضلى ..

شهق فى جزع .. عليه أن يغادر هذا الحمام الخانق .. عليه أن ..

مترنحًا هرع إلى الباب الموصد ، فقط ليكتشف المفاجأة غير السارة على الإطلاق .. الباب بلا مقبض طبعًا .. لكنه يحوى (الكالون) الداخلى ، وله لسان قد برز الآن ليدخل فى ثقبه ..

يحتاج إلى مقبض .. يحتاج إلى جسم معدنى مضلَع يدسه فى الثقب ليدير به اللسان.. لكن كيف يجده والألم يزداد ، والهواء أكثر ندرة من .. من (اليورانيوم) .. من الـ ..... ؟

دق الباب مرتين أو ثلاثًا ..

تحول الصراخ إلى عواء طويل كعواء ذئب جريح..

ثم لا شىء ..

ظلام مطبق ..

★ ★ ★

بعد ثلاثة أشهر فتح رجال الشرطة الشاليه / الفيلا، فوجدوا أشياء غريبة جدًا ..

وجدوا جثة ـ تحولت إلى عظام الآن ـ خلف جدار نصف مكتمل .. ووجدوا هيكلاً عظميًا يحاول الزحف إلى باب بلا مقبض ..

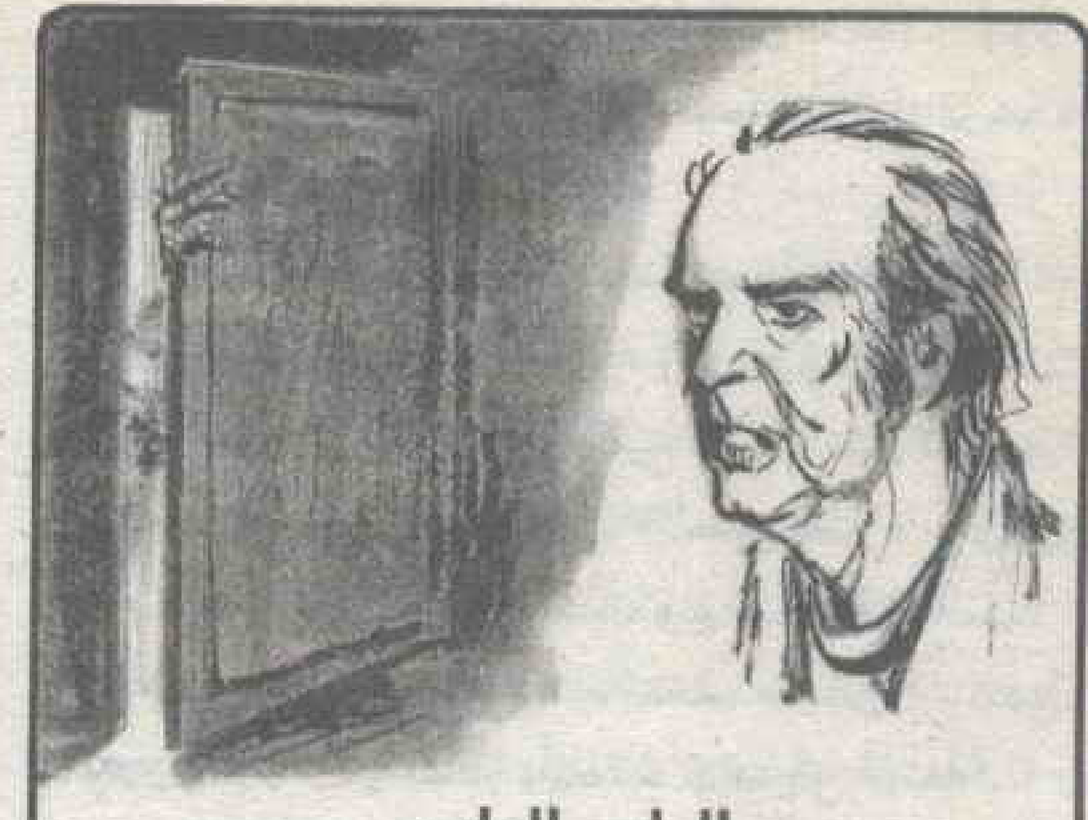
وكان هناك شيئان آخران لهما أهمية خاصة :

الأول هو جهاز تسجيل أداره (إبراهيم الغنام) منذ جاءه (صبحى) ، وكان يزمع تسجيل كل تفاصيل المحادثة لتفريغه فيما بعد ، وتنسيق أفكاره ، وهو ما لم يخطر ببال (صبحى) قط ، ولم ير الجهاز أصلاً ..

الثانى هو مقبض باب ـ نصف مقبض إن صحَ التعبير ـ وجدوه مختلطًا بأسمنت جافَ فى قصعة ..

وتساءلوا : من الأحمق الذى يخلط مقبض باب بالأسمنت ؟ وما هو الغرض ؟

★ ★ ★



الباب الرابع

« كلاكيت ! »

يفتحه : « حسين أبو النجا »

« ملامح الرجل غريبة حقًا .. عيناه جاحظتان مفعمتان بالذعر .. شعره منتصب كاشواك قنفذ ؛ وها هو ذا يضع يديه على جانبى رأسه ويصرخ .. طبعًا صرخة صامتة لم يسمعها أحد .. »

ـ ١ ـ

قلت لـ (محمود عونى) بعد ما انتهت قصته :

ـ « إذن كانت القصة هكذا ! إننى سمعت تفاصيل القصة حين حدثت فى زمنها ، لكننى لم أعلق عليها أهمية كبرى ، ولم أعش فيها كما أعيش الآن .. إذن كان مقبض الباب فى قصعة الأسمنت من البداية ! »

ابتسم فى وقار ، وقال :

ـ « طبعًا .. لكن من المبالغة أن يقول إن هذا كان سينقذ (صبحى) ، فالمكان ناء والمجهود كان عنيفًا .. ثمة عدالة شعرية فيما حدث ، وإن كنت أكذب لو زعمت أننى مسرور بهذه النهاية .. »

قالت مدام (ناهد) وهى تضع بعض الشطائر أمامنا ، كانت قد جلبتها من المطبخ :

ـ « لقد تعاطفت مع (صبحى) أكثر من (إبراهيم الغنام) ، ولعلى شريرة فى هذا التعاطف .. »

قال المخرج العجوز ، وهو يمدّ يده إلى شطيرة :

ـ « هذا لأن القصة كلها من وجهة نظر (صبحى) ، وهذا يجعلك تعيشين تجربته ، وتتبنين

قضيته على الفور مهما كانت خاطئة .. هذا يحدث كثيرًا فى السينما حين يجعلك السيناريو تتبنَّين قضية لصٍ أو قاتل ، وهو خطأ أخلاقى ، لكن النهاية تبرِّره .. وثمة قاعدة قديمة فى (هوليود) تقول : دع المشاهد يعشق الأخطاء ثلاثة أرباع الفيلم ؛ إذا كنت تنوى جعله يمقتها فى الربع الأخير .. ولو كانت القصة من وجهة نظر (الغنام) لكان تعاطفنا فى اتجاه مختلف تمامًا .. »

ساد الصمت برهة ، ثم قلت بفم ملىء :

ـ « الباب الأول كان يخفى سرًا جهنميًا لملحن شهير .. الباب الثانى كان يدارى غريقًا اتضح أنه ليس كذلك .. الباب الثالث أفسد جريمة شبه كاملة .. ترى ماذا ينتظرنا خلف الباب الرابع ؟! »

ونظرت إلى المخرج العجوز (حسين أبو النجا) ، وقلت :

ـ « هذا دورك يا سيدى .. »

فى عصبية قال :

ـ « حان أوان ذلك .. ظننتكم ستتجاهلون قصتى للأبد .. »

ـ « بل نحن نبقى الحلوى لنهاية الوجبة .. »

قلتها مداهنًا متملقًا .. فلا أرغب فى إثارة غضبه فى ليلة كهذه ..

* * *

قال المخرج الكبير (حسين أبو النجا) :

ـ « كنت فى ذلك الحين متعاقدًا مع المنتج الكبير (.....) لتصوير آخر أفلامى (فاجعة فوق السطح) ؛ مع النجمة الشهيرة (حسناء) والأستاذ (عمر عزت) .. من المعروف عنى أننى من المخرجين سريعى الإنجاز ، وأن فترة ثلاثة أسابيع كافية جدًا لتصوير أطول فيلم لى ، كما أننى أتحرك فى حدود الميزانية المقررة لا أتجاوزها .. »

« يتهمنى النقاد بضيق الأفق والسطحية .. لكننى ـ ببساطة ـ رجل فهم الجمهور ، وعرف ما يتوقعون منه ، ويمكننى إنجاز أى فيلم بخلطة سرية أعرفها وحدى .. بعض الجريمة .. بعض الحبّ .. بطلة حسناء .. رقصة شرقية .. عصابة ما .. النهاية السعيدة والزواج .. من يتزوج من ؟ البطل والبطلة طبعًا مهما تباينت شخصيتاهما ..

حقًا لن يفوز فيلم من أفلامى فى مهرجان (برلين) ، ولن يظلّ فى دور العرض عامًا كاملًا ، لكنه يحقق هامش ربحٍ لا بأس به للمنتج ، والسينما صناعة قبل أن تكون فنًا .. إننى أضمن سرعة دوران رأس المال ، وهكذا يمكننا صنع فيلم ثان فثالث ، كلها تكفل الحياة الرغدة لى ولأطفالى، وللمنتج والممثل .. والمونتير .. ولم يترك مشاهد دار السينما شاعرًا أنه قد خدع .. لقد حصل على كل شىء .. و بـ (الكيلو) ..

من يشكو إذن سوى النقاد المعقدين منكوشى الشعر كثيرى التدخين ؟

* * *

ـ « أكشن ! »

قلتها بلهجتى الآمرة الممطوطة التى أعشقها ، وهكذا هرع صبى الـ (كلاكيت) المصاب بالأنيميا يتلو أمام العدسة رقم اللقطة ، وعدد مرات تصويرها ، ثم نزع اللوحة وانسحب ..

هدير الكاميرا العالى .. الأضواء الباهرة .. الديكور .. الممثلون ..

ربّاه ! من يزعم بعد هذا أننا نقدم هراء ؟!

إن كل هذا يكلف مالاً .. لكنه رائع ولا يُصدَق ..

ودنا البطل من البطلة ليلقى العبارات التى حفظها من (السيناريو) ..

طبعًا لا داعى للقول إنه حفظ هذه العبارات من ربع ساعة لا أكثر ، ورآها لأول مرة فى حياته من ثلث ساعة .. لا وقت لدىّ ولا لديه لجلسات الاستماع ومناقشة السيناريو وكل هذا الهراء .. لسنا فى (ستوديو الممثل) الشهير فى (هوليوود) حيث يكون على الممثل أن يفكر ويحلم ويتنفس كبطل الفيلم ، دون أن يكف عن أن يظل هو .. هؤلاء القوم لديهم الوقت والمال ، أما هنا فأنا بحاجة لبطل يجيد اصطناع أربعة أنماط من العواطف : الغضب ـ القلق ـ الفرحة ـ الهيام .. هذا كاف جدًا ..

البطلة تعطيه ظهرها وتواجه الكاميرا (هذا هو الميزانسين المفضل لدىّ مهما سخر الساخرون) ، بينما هو يكلمها فى هيام :

ـ « (مرفت) .. أنت الأمل الذى انتظرته طيلة حياتى .. »

فتقول فى تعال :

ـ « لا تقل لى هذا .. قله لـ (نادية) .. »

فيبدو الألم على وجهه .. ألم سينمائى من الذى يحرّك الملامح كلها ..

ثم يقول :

ـ « (نادية) وأنا مجرّد صديقين .. لم يعد بيننا ما ..... إلخ .. »

هنا لاحظت أن الباب فى خلفية الكادر يتحرّك .. المشكلة هى أنه واضح للعيان أكثر من اللازم ، وهما وحيدان كما هو مفترض .. فى العادة أنا لا أدقق كثيرًا .. فى هذه الأمور ، وفى أحد الأفلام دخلت البطلة غرفتها لتبكى أمام مرآتها ، وحين عرض الفيلم ظهرت صورتى واضحة تمامًا فى المرآة ، ورآها النقاد جميعًا !(*)

ماذا حدث ؟ هل انطبقت السماء على الأرض ؟ هل توقفت الحياة ؟ سرعان ما تمرّ أشياء كهذه ،

(★) حقيقة .. لقد حدث هذا بالفعل مع مخرج آخر لن يذكر اسمه طبعًا !

وينساها الناس .. لا أحد يعلّق المشانق لأسباب واهية مثل هذه .. دعك من أنها أشياء تؤدى رواج الفيلم ، ولرب من يدخل السينما فقط ليرى صورتى فى مرآة البطلة ، ويضحك !

ـ « ستوووب ! »

دوت صيحتى الغاضبة .. فهذه المرة لم يكن من السهل أن أتجاوز عن هذا .. وما أحنقنى هو أننى لا أصوّر اللقطة مرتين إلا فيما ندر ..

وصحت فى عمال الاستديو المذعورين :

ـ « من الذى يحرّك هذا الباب ؟ »

ـ « لا أحد يا سيّدى .. لا أحد .. »

وهرع أحد فنيى الكهرباء نحو الباب وفتحه .. لم يكن وراءه شىء سوى ستار مفرود من الكتان .. إنه ديكور مسطح ذو بعدين ككل ديكورات السينما ، ومن غير الوارد أن يتوارى أحد وراءه ..

ـ « إذن تأكدوا من غلقه كى لا ينفتح .. »

ولم يكن الباب مزودًا بقفل أو مزلاج ، لذا تفتق ذهن أحدهم عن جلب قطعة قرميد ووضعها تحت

الباب ، حيث تظل بعيدة عن مجال العدسة ، وتمنع الباب من الاهتزاز ..

كان البطل قد انتهى من تدخين لفافة تبغه ، والبطلة قد وضعت مساحيقها وأعادت لصق أهدابها الصناعية للمرة الألف هذا اليوم ..

ـ « صمتًا ! سنبدأ ! »

ومن جديد جلست فى مقعدى ، وأطلقت صيحة البدء .. فالكلاكيت ، ثم راحت آلة التصوير تهدر ، و ...

ـ « (مرفت) .. أنت الأمل الذى انتظرته طيلة حياتى .. »

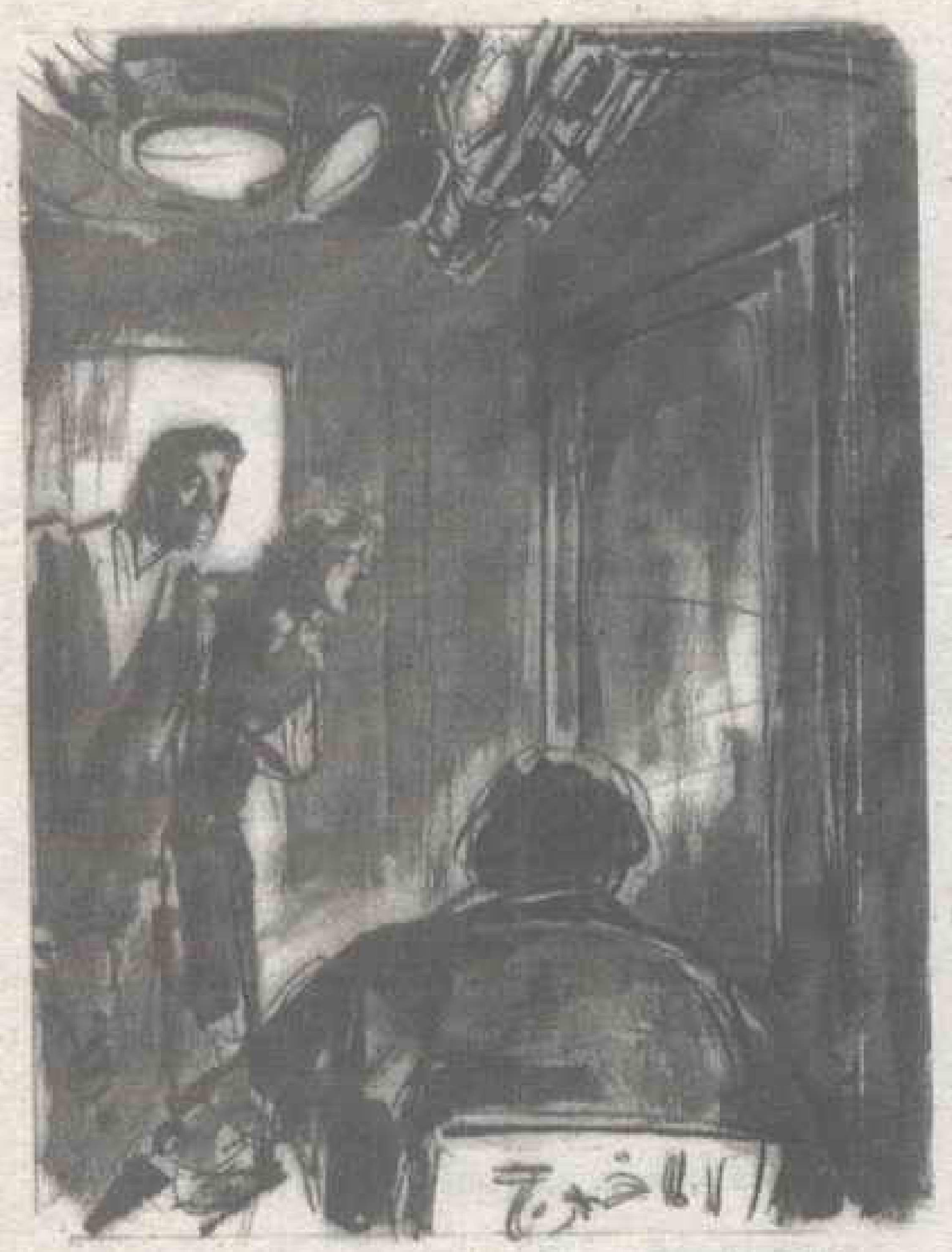
ـ « لا تقل لى هذا .. قله لـ (نادية) .. »

ـ « (نادية) وأنا مجرّد ..... »

هذه المرة تحرك الباب بعنف أكثر ، وتعالى الصرير مع صوت قطعة القرميد إذ تحتك بالأرضية ..

وتبادلنا النظرات مشدوهين .....

* * *



هذه المرة تحرك الباب بعنف أكثر ، وتعالى الصرير مع صوت قطعة القرميد إذ تحتك بالأرضية ..

- ٢ -

قال المخرج العبقرى (أبو النجا) :

- « لكم أن تتصوروا غضبى وضيقى من هذا السخف .. نهضت بنفسى إلى الباب وتفحصته .. كان ثقيلاً إلى حدّ ما ، وقد ساعد قالب القرميد فى جعل عملية فتحه جهدًا إيجابيًا ، لا يمكن أن يتم بفعل الهواء .. »

هنا قاطعته سائلاً :

- « لحظة .. تقول إن وراء الباب ستار قماشى .. فماذا وراء الستار ؟ »

هزّ رأسه ، وقال :

- « لا شىء .. مجرّد فرجة تقود إلى جدار .. وكان ما خطر لى هو أن أحدهم يتسلل إلى ما وراء الستار ليدفع الباب من خلاله .. »

- « من هو ؟ »

ابتسم فى تهكم ، وقال :

- « كثيرون .. كل الناس تملك حقدًا معينًا على العاملين فى مهنة السينما ، ونتمنى إفساد عملهم ..

قد يصرخ أحدهم انبهارًا حين يرى نجمة سينمائية حسناء ، لكنه فى قرارة نفسه يمقتها ويتمنى لها الفشل .. وكل سينمائى حاول أن يصوّر فيلمًا فى شوارع (القاهرة) ؛ يعرف جيدًا كيف يحاول الناس جاهدين أن يفسدوا ما يقوم به دونما سبب واضح.. »

- « وهل وجدت رجلك الحاقد هذا ؟ »

- « لا .. طبعًا .. »

* * *

قمنا بتفتيش الكواليس جيدًا ؛ فلم نر إلا قطة وأطفالها الرضع ، وقد قام العمال بطردها بالمكنسة بلا رحمة ..

ثم إننا أحكمنا غلق الباب بمسمار محوىّ ثبتناه من الخلف ؛ وبدأنا تصوير المشهد المقيت .. لثالث مرّة ..

- « (مرفت) .. أنت الأمل الذى انتظرته طيلة حياتى .. »

- « لا تقل لى هذا .. قله لـ (نادية) .. »

- « ستوووب ! »

لأن الباب تحرك من جديد ، وبعنف يتناسب مع الإحكام الذى قمنا بتثبيته به ..

ورأيت المصورَ يضرب كفًا بكف ، على حين راح عمال التصوير يبسملون ويحوقلون ، وقد أدركوا ما أدركته أنا ..

ما يحدث هنا خارق لقوانين الطبيعة ..

راحت البطلة تصيح فى هستيريا :

ـ « أوف ! هذه ليست سينما .. هذا ليس عملاً ! لم لا تعلمونهم كيف يصنعون الديكورات قبل أن تبلونا بهم ؟! »

وكنت معتادًا على هستيريا النجمات هذه ؛ وأجدت امتصاصها طيلة حياتى .. حقًا لم أكن قط من المخرجين الطغاة ..

ـ « أعرف أن هذا يثير الضيق يا (مدام) .. لكن دعينا نصورَ هذه اللقطة ، ولسوف أجد حلاً فى أثناء تقطيع الفيلم .. »

نفختْ فى ضيق ، وهتفت من أنفها :

ـ « ماكياج ! »

وللمرة الألف هرعت الماكييرة لتضع المساحيق على أنفها اللامع ..

ومنَى دنا مساعدى ـ وهو شاب ذكى سيصنع أفلامه الرديئة يومًا ما بالكيفية ذاتها ـ وهمس :

ـ « لقد انتزعت قوةٌ ما المسمار المحوى من مكانه ! »

ـ « أعرف .. فيما بعد سيكون لدينا وقت كاف لتطهير المكان بالبخور والأوراد ؛ أما الآن فالوقت يعنى مالاً .. »

وبصوتى الجهورى المحبب صحت :

ـ « آكشاااان ! »

ومن جديد هدرت آلة التصوير ، والتمعت مصابيح (الآرك) بعد ما وضعنا (شارج) جديد فى الآلة ، وراح مكبر الصوتَ الصغير ينحدر من علٍ ، ليواصل مهمته ..

ـ « (مرفت) .. أنت الأمل الذى انتظرته طيلة حياتى .. »

هزّت كتفها فى ملل .. كان مللها ونفاذ صبرها اللذان بدأت التصوير بهما يرتفعان بأدائها إلى درجة الإعجاز :

ـ « لا تقل لى هذا .. قله لـ (نادية) .. »

ـ « (نادية) وأنا مجرّد .....

ومن جديد انفتح الباب .. انفتح أكثر فأكثر .. كاشفًا عن الستار القماشى .. ونظر لى مساعدى فى قلق ، لكننى أغمضت عينى بمعنى (لا مشكلة هناك) .. دعوا الأمور كما هى ..

وواصل البطل حزنه ، بينما الباب يواصل اهتزازه فى مؤخرة الكادر :

ـ « (مرفت) .. لو رفضت حبّى سأقتل نفسى .. »

ثم علا أداؤه أكثر .. وصاح :

ـ « سأقتل نفسى ! »

تمثيل ردىء جدًا أو مسطح للغاية .. لكنه يؤدى الغرض ما دام الفتى بحق وسيمًا ، لا تكف مجلة (النجوم) عن نشر صورته ، وتعلقها كل مراهقة حمقاء فى غرفتها .. حالمة بأن يقتل نفسه من أجلها هى ..

واستدار ليجرى خارجًا من الكادر ، على حين نظرت البطلة نحوه فى شك ، ثم صاحت وقد تزعزعت ثقتها :

ـ « (عادل) ! (عادل) ! »

ـ « ستوووب ! رائع ! إطبعْ ! »

كذا صحت أنا وقد راق لى الأداء بشدّة .. إنه ردئ .. لكن لن تجد أفضل منه مع هؤلاء الممثلين وبهذه الميزانية ..

هنا انفجر مصباحان ، وسمعنا صرخة البطلة فى الظلام ..

وساد الهرج والمرج ..

* * *

لم تكن الحروق فى وجهها مريعة .. ستشفى سريعًا وتحتفظ بجمالها الذى هو موهبتها الوحيدة ..

وقبل أن تنصرف لدارها ، دعت علىّ بالعمى والشلل ، ودعت على الاستوديو بالخراب ، واستعملت ألفاظًا يعاقب عليها القانون ، تعلمتها فى أزقة أجهل عنها كل شىء .. ثم أضافت :

ـ « لقد كان يومًا أسود من بدايته .. والآن يسرنى أن أنسحب من تصوير هذا الفيلم الردىء .. »

لا .. لا .. كله إلا هذا ..

ـ « والعقد ؟ والشرط الجزائى ؟ »

فى لهجة مسرحية فخيمة صاحت :

ـ « بِلّه واشرب ميّته) ! »

وغادرت المكان ، وقد حوّلت الضمادات وجهها إلى ما يشبه الأخ (بوريس كارلوف) فى أفلام (المومياء) التى أثارت رعبنا فى شبابنا لفترة لا بأس بها ..

صاح مساعد المخرج وهو يرتجف رعبًا :

ـ « إنه الخراب ! »

ـ « يا بنى أنت حديث عهد بالمهنة .. لقد مررت بهذا الموقف مائة مرة ، وفى كل منها كانت المياه تعود لمجاريها بمجرّد أن يلمّح المنتج بزيادة الأجر .. دع الأمر لى وأعدّ لى اللقطات التى لا تظهر فيها هذه الحدأة .. سنقوم بالبدء فيها غدًا .. »

* * *

فى الصباح يقول خفير الاستوديو أشياء غريبة حقًا ..

الرجل منهار متوتر الأعصاب ، يقسم أن هذا الباب ظلّ ينفتح وينغلق طيلة الليل .. ثم إن أضواء الاستوديو المطفأة راحت تتوهج كلها مرارًا ، ويقسم كذلك أنه سمع أنينًا متصلاً من وراء الباب ، وفى كل مرة كان يفتحه ويتحقق ، ثم يدور حول الستار

القماشى ليتنصت .. لكنه فى كل مرة لا يجد شيئًا ..

ـ « الصوت يا أستاذ كان قادمًا من كل مكان ولا مكان .. كأنما الجدران ذاتها تئن ! »

تأملت شاربه الغليظ ووجهه الأسمر الخشن ، وقلت وأنا أبتعد :

ـ « يبدو أنك صرت شاعرًا على كبر ! واحسرتاه على حال الرجال .. »

صاح محاولاً جعلى أسمعه :

ـ « أنا لا أخرف .. واللّه على ما أقول شهيد .. »

لكنى كنت قد ابتعدت ..

* * *

ودعانى المونتير (عباس) كى أرى معه (الراشز) Rushes ، وهو مصطلح يعنى اللقطات التى تم تصويرها اليوم السابق ، ومن المعروف أنه لا وقت لدىّ لمتابعة عملية تقطيع الفيلم .. يقولون : إن هذه فرصة رائعة للمخرج ليعيد إخراج فيلمه مرتين ، وأفضل مخرجى العالم هم من بدءوا مهنتهم فى غرفة (المونتاج) .. مخرجين على غرار (ديفيدلين) و (صلاح أبو سيف) و (كمال الشيخ) ..

لكن من قال إننى أريد أن أكون أفضل مخرج ؟ فقط أريد أن أكون أنجح مخرج .. أسرع مخرج .. أغنى مخرج ..

وفى غرفة (المونتاج) - التى أمقتها - وضعوا أمامى كوبًا كبيرًا مليئًا بالقهوة .. على حين جلس (عباس) يدير آلة (الموفيولا) التى تعمل ببدّال صغير ، وتتيح لك رؤية المشهد على شاشة زجاجية صغيرة ..

كانت تلك اللقطة الكريهة التى يصرّ الباب على أن ينفتح فيها فى كل مرّة .. لدينا أربع نسخ منها ، وإن كانت أول ثلاث نسخ غير مكتملة ، لأن صوتى كان يقطع المشهد فى لحظاته الأخيرة ..

فقط النسخة الرابعة كانت كاملة ؛ وحتى مشهد هروب البطل من الكادر مصممًا على الانتحار ..

وفى هذه المرة انفتح الباب بالكامل ، واستطعت أن أرى من يقف فى فتحته ، واقفًا خلف البطل إذ يتكلم ..

- « من هذا ؟ »

كان هذا سؤال المونتير ، فلم أردّ .. لم يكن هناك جواب ..

ملامح الرجل غريبة حقًّا .. عيناه جاحظتان مليئتان بالذعر .. شعره منتصب كأشواك قنفذ ، وها هو ذا يضع كفيه على جانبى رأسه ويصرخ .. طبعًا صرخة صامتة لم يسمعها أحد ..

وانتهت اللقطة هنا ، إذ غادر البطل الكادر ، وصاحت البطلة تناديه .. ثم صحت أنا بدورى أهنئهما على روعة الأداء ..

وتبادلت النظرات مع المونتير أمام الشاشة الفارغة..

- « من هذا ؟ »

كرّر سؤاله للمرة الثانية .. فقلت بصوت مبحوح :

- « لا أعرف .. ولم يره أحد فى أثناء التصوير.. »

وابتلعت ريقى ، وأردفت :

- « هذا هو الشىء الذى كان يفتح الباب فى كل مرة .. لقد عجزت عيوننا عن رؤيته ، لكن خامة الفيلم الحساس استطاعت ذلك .. »

واقشعر جلدى لهول الفكرة ..

لقد نجح الفيلم الخام فى اقتناص دليل مادى على .... على ......

ربّاه !

* * *

ماذا يوجد خلف هذا الجدار ؟

كانوا يراجعون التصميمات القديمة .. لا شيء سوى غرفة فارغة كانوا يستخدمونها قديمًا للمحولات ، ويخزنون فيها مولد كهرباء .. ثم تم إلغاؤها منذ عدة أشهر .. وسدّوا بابها بالقرميد ..

كان مدير الاستوديو متشككًا كارهًا ؛ لكني كنت مصرًا ، ووعدته بأن أعيد ترميم الفتحة على نفقتي الخاصة ..

وعند العصر جاء ثلاثة رجال ، قاموا باستعمال المطارق والأوتاد الحديدية لتهشيم ثغرة في القرميد .. ثغرة تسمح بدخول رجل واحد لا أكثر ..

وبعد نصف ساعة دخل أصغرهم حجمًا من الفتحة حاملاً كشافًا ضوئيًا ..

طبعًا سمعناه يصرخ ..

هذا مفروغ منه وكنا نتوقعه ..

* * *

وتمّ إجراء تحقيق سريع فعرفنا الكثير ..

لقد حدث هذا في ذات الليلة التي كان البناءون عاكفين فيها على سدّ باب حجرة التوليد هذه ..

إهمال معتاد حدث .. لقد عاد العمال إلى بيوتهم ، وترك فني الكهرباء بعض الأسلاك العارية الخطرة .. وفي الليل تسلل متشرد ما لينام داخل الحجرة غير عالم بأن نهايته تنتظره في شغف ..

في الصباح جاء فني الكهرباء ليجد جثة متخشبة على الأرض ..

لقد حاول المتشرد أن ينام فوق قطبين عاريين لسلكين غليظين ، والنتيجة هي أنه تفحّم .. لم يجد الوقت الكافي ليصرخ ..

وهنا اتخذ الكهربائي قراره ..

لا أحد يعلم ما حدث .. لا أحد يعرف هوية المتشرد.. لن يبحث أحد عنه .. يمكن - بشيء من التدبير - أن يفلت من تبعات الإهمال الجسيم هذه ..

وبسرعة أخلى الكهربائي الغرفة من كل ما يمت للكهرباء ، وواري الجثة المتصلبة في ركن مظلم وغطاها بالخرق القماشية ، ثم خرج ليقف جوار الفتحة بانتظار عمال البناء حين يجيئون ..

وخلال نصف ساعة ارتفع القرميد ، ليسدّ باب الغرفة ، وتحول المكان إلى قبرٍ دائم للغريب ، الذي لم يرتكب

خطأ سوى محاولة النوم تحت أول سقف وجده ..

لم يكن فنى الكهرباء قد أخبر أحدًا بسرّه ، لكنه انهار سريعًا حين استجوبناه ، وحين أحسّ بأن جريمته لم تمت بعد .. هناك أشياء لا يمكن دفنها تحت التراب مهما حاولت ..

* * *

يمكن بشىء من الخيال أن نقول إن شبح القتيل - مجهول الاسم - أحس بالباب الذى وضعوه أمام الجدار .. كان بابًا وهميًا ، لكنه افترض أنه يقوده إلى الخارج .. إلى حيث يعرف الناس المأساة غير الضرورية التى جعلته يفقد حياته ، ولا يحظى بدفن لائق ..

لقد نجحت خطته .. وإن تكتم الاستوديو كل شىء حتى لا يُساء إلى سمعته ..

وحينما قمنا بتوسيع الفتحة ، ودخلنا الحجرة المنسية ، كان ما رأيناه هو كومة من الخرق البالية فى ركن مظلم ..

أزحنا الخرق .. فوجدنا هيكلاً عظميًا يرتدى بقايا ثياب متفحمة ..

إن الجماجم تتشابه بالتأكيد .. والفارق بينها لا يعرفه سوى طبيب شرعى ..

لكن من شاهدوا فتحتى العينين فى تلك الجمجمة بالذات ؛ شعروا بأنهما تحملان اتهامًا صامتًا ..

اتهامًا لنا جميعًا ..

* * *



الباب الخامس

« كلوستروفوبيا »

تفتحه : « هيام »

« لا تكونى بلهاء يا «هيام» ، يجب أن تخرجى من هنا أو تجدى خطة ما ، قبل أن يتكفل الظلام الدامس بشلّ حركتك نهائيًا .. »

– ١ –

قالت مدام (ناهد) وهى تتثاءب :

– « باللّه عليك ! يا لها من طريقة لإمضاء الأمسية ! لقد اقشعرّ جلدى من هذه الأقاصيص ، وإننى لأتساءل عن صاحب هذه الفكرة .. »

قلت فى كبرياء :

– « يا له من سؤال ! إنه أنا طبعًا .. »

ابتسمت وتأرجح رأسها كأنما ثملى دون طلا ؛ والحقيقة هى أن الساعات التى أمضيناها هنا جعلتنى أقل كراهية ومقتًا لهؤلاء القوم .. ليسوا بالسخف ولا التفاهة ولا الإملال الذى حسبته .. يمكنك أن تحبّ أى إنسان – ولو كان إنسان (نياندرثال) – إذا أمضيت معه وقتًا كافيًا ، وسمحت لوهجه البشرى أن يلمس روحك .. حتى المخرج الأحمق والشاعرة التى تمقت الجميع .. كل هؤلاء يحملون طاقة إنسانية ما ، وحين تدنو منهم تدرك أنهم ضحايا كسواهم ..

قالت مدام (ناهد) وهى تنظر لضوء الفجر المتسرّب على حياء من الخارج :

ـ « لقد نسيت ما نحن فيه .. تصوَّر هذا ! اندمجت فى القصص حتى غابت عنى تمامًا حقيقة موقفنا ؛ وما ينتظرنا من علامات الاستفهام .. إن فكرتك لم تكن رديئة تمامًا يا د. (رفعت) .. »

فى هذه اللحظة بدأت (هيام) ـ ممثلتنا الصاعدة ـ تفتح عينيها .. لقد صار شكلها جديرًا بهذه الدقيقة .. دقيقة الاستيقاظ من النوم .. جفنان منتفخان ، وشعر منكوش ، ونظرة معادية كارهة للنور .. وبين شفتيها راحت تلوك ذلك الطعام الغامض الذى يلوكه النيام جميعًا ..

راحت ترتجف قليلاً، فعقدت ذراعيها على صدرها ، وقالت إنها تشعر ببرد شديد ..

بعد ثوان .. غمغمت كالأطفال (عطشانة) ، فجلب لها (محمود عونى) بعض الماء فى كوب من دورق..

تثاءبت وتساءلت عن الساعة ، فأخبرناها .. لطمت خديها غير مصدقة ، واحتاج الأمر إلى عشر دقائق كى تعود لصوابها ..

قلت لها بلهجة آمرة :

ـ « هيا .. قصتك ! »

صاحت فى رعب :

ـ « ماذا ؟ »

ـ « قصتك مع الباب المخيف ! »

قال لى الأستاذ (محمود) فى رفق :

ـ « صبرًا يا د. (رفعت) .. المسكينة تصحو من النوم فى مكان غريب ومع غرباء ، لتجد من يأمرها بأن تحكى قصة عن باب مخيف ! »

ـ « إنه الحماس كما تعلم .. »

أخيرًا عاد للفتاة وعيها ـ يا لها من بلهاء ـ وهرشتْ شعرها بطريقة غير رومانسية بالمرة ، ثم قالت بعد ما تثاءبت كفرس النهر :

ـ « لدىَّ قصة .. دعونى أحكها لكم .. »

* * *

قالت (هيام) :

ـ « يقولون إن حوادث الطفولة أشبه بالخدوش التى تترك على سطح ليّن من الأسمنت .. سرعان ما يجفّ فلا تمحى الخدوش أبدًا ..

يقولون إن كل عقدنا ونحن بالغون ، بدأت فى طفولتنا ..

يقولون .. يقولون ..

وأحسبهم صادقين فى هذا كله ..

* * *

فى طفولتي قارفت خطأ ما .. حقًا لا أذكر ما هو .. لكنه كان هينًا بالتأكيد ، وما هو الخطأ غير الهين الذى يمكن أن تقارفه طفلة فى السابعة من عمرها ؟

كان هذا فى بيت عمتى ، وكانت سيدة صارمة تؤمن بأن الأطفال (لازم يتربوا) ، لهذا اعتصرت لحم ذراعى فى غلّ بين إبهامها وسبابتها .. وراحت تضغط وتضغط ، وهى تكشر عن أسنانها ..

ثم دون مناقشة جرتنى جرًا إلى السطح حيث (عشة الفراخ) الخالية ، من بعد ما فتكتْ (الشوطة) بما فيها من دجاج ..

كان المكان قذرًا ، وفضلات الدجاج فى كل مكان ، لكن الأسوأ هو أنها أحكمت غلق الباب علىّ من الخارج لأجد نفسى وحيدة فى الظلام (كان الليل قد جاء) ، دون بصيص من نور يتسلل من السلك المخصص للتهوية .. وسمعتها – وسط صراخى – تبتعد زاحفة بخفيها الثقيلين ..

فقط قالت فى لهجة محايدة تمامًا :

– « لازم يتربوا ! »

وكذا وجدت نفسى أصرخ وأصرخ .. أضرب الجدار الخشبى بقدمى .. برأسى .. وفى ذهنى تجمّد كل شىء .. حتى (العاوَ) الذى كان يتحين فرصة كهذه ليخرج ؛ أصابه الهلع فوقف فاردًا كفيه عاجزًا عن الكلام ..

وبالنسبة للأطفال لا يوجد سوى المطلق .. هم تركونى هنا ، لذا سأظل حيث أنا للأبد .. لن أرى النور ثانية ..

وبالنسبة للأطفال – كذلك – لا يوجد إحساس بالزمن .. لذا يصعب أن أقول كم لبثت .. بالنسبة لى بدا لى أن هذا امتدّ قرونًا ، وبالنسبة لأبى بدا أننى لبثت ساعة ..

لقد عاد ليجد أننى سجينة فى (عشة فراخ) فوق السطح فى الظلام ، ولم أدر كيف وجدت نفسى فى حضنه وهو يعتصرنى بقوة ، ويقول مغضبًا لعمتى :

– « فى (عشة الفراخ) يا (عنايت) ؟! ماذا فعلَته كى تستحق كل هذا فى غيابى ؟! »

ولم أسمع ما قالته عمتى بالتفصيل ، لكننى ميزت آخر عبارة قالتها ألا وهى :

ـ « دول لازم يتربوا ! »

* * *

حسن .. كانت هذه هى الخبرة العظمى فى طفولتى ، وكانت بداية مرض (الخوف من الأماكن المغلقة) الذى لم أشف منه قط ..

فيما بعد قال لى الأطباء : إن مريض (خوف الأماكن المغلقة) لا يستطيع تذكر مناسبة معينة بدأت فيها شكواه .. كلهم يقول : لقد ولدتُ هكذا .. لكن ـ فى حالتى هذه ـ كانت تجربة الطفولة واضحة وضوحًا مدرسيًا يثير الانبهار ..

وفيما بعد عرف الجميع أننى لا أحتمل أن ينغلق باب علىّ ، وفى الصفّ كنت أصرخ هلعًا لو خرجت كل الطالبات وتركننى وحدى .. كما أننى فى الحمام كنت أترك الباب نصف موارب برغم أن هذا غير لائق ، لكن فكرة الباب المغلق كانت تتحدى أى حياء ، واعتادت زميلاتى أن يعابثننى بأن ينتهزن أول فرصة ليغلقن علىّ أى باب ؛ لكن ردّ فعلى كان فى الغالب شرسًا يثير الهلع فى نفوسهن ..

* * *

كبرت وبدأت أميل إلى فن التمثيل .. لا أدرى لما ، لكن يبدو أن هذا نوع من العلاج الذاتى .. ولهذا لم أعد أندهش حين أسمع عن الفرق المسرحية فى المصحات النفسية .. إن التمثيل علاج لا بأس به ..

اشتركت فى مسابقة للوجوه الجديدة ، وكان لى باع فى الفرق المسرحية الإقليمية ، ثم أرسلت لى مجلة (النجوم) خطابًا تدعونى فيه إلى مقابلة شخصية تتكون من عدّة ممثلين وأستاذ مسرح عجوز ..

وكما يحدث فى الأسر المتوسـ ... المتحفظة .. ذهبت مع (بابى) وأخى طبعًا .. و ..

* * *

هنا تدخلت ، لأننى لم أستطع منع نفسى :

ـ « تعنين بـ (بابى) أباك طبعًا ؟ »

ـ « هه ؟ ماذا تريد ؟ »

ـ « الذى أنقذك من السجن فى (عشة الفراخ) وأنت طفلة ؟! »

ـ « د. (رفعت) .. لا أفهم ما ترمى إليه ..

ـ « لا شىء .. أكملى قصتك .. »

* * *

قالت (هيام) وهى ترمقنى فى لوم :

ـ « أجريت المقابلة الشخصية بنجاح ، وأديت مشهدًا قصيرًا من فيلم لـ (فاتن حمامة) حفظته عن ظهر قلب .. الحق إننى كنت محظوظة ، لأننى نلت قلوبهم وقبولهم من اللحظة الأولى ، وعرفت أننى نجحت ..

بعد هذا ترددت مرارًا على مكتب المنتج الذى رشحوه لى ؛ وأعطانى (سيناريو) رديئًا لم يرق لى قط ، لكنه أخبرنى ـ فى أدب ـ أننى لا أملك بعد الحق فى الرفض ..

وقال : Take it or leave it (خذيه أو اتركيه) ، لكن أحدًا لن يقدم لك فرصة أخرى ..

كان الإغراء شديدًا .. أن أرى وجهى مجسمًا على شاشة السينما العملاقة .. وعلى الملصقات .. إنها اللحظة التى يكفأ فيها المرء عن أن يكون شخصًا عاديًا ، ويتحول إلى رمز مطلق كالحق والخير والجمال ..

كان علىّ أن أقبل ، وظللت آمل أن أصل إلى درجة من القوة تتيح لى الاختيار .. لكن هذه اللحظة لم تأتِ قط ..

وجاء اليوم الذى وقفت فيه أمام العدسة ، و (الدوللى) يلاحق حركاتى ، بينما الأضواء الساطعة تكشف كل تجعيدة وكل خلجة فى وجهى .. الحق إنه شعور رهيب ، ولا داعى لأن أقول إننى فقدت الوعى فى المرّة الأولى ..

لكنى ـ ببطء ـ بدأت آتخذ صورة النجمة متوسطة الشهرة ، وكان التعليق الذى يلاحقنى لا يتغير : فتاة بارعة الحسن لكنها بلا موهبة ، وصوتها مشروخ ، ووجهها له كل القدرات المعبّرة التى يمكن أن تجدها فى وجه الحصان ..

* * *

وضمت (هيام) شفتيها ونظرت للسقف كأنما تتذكر ، فخفق قلبى ، لأنها فى هذه اللحظة بدت كـ (ماجى) تمامًا .. قالت :

ـ « لا يهم .. لقد صرت شهيرة ، وظهر وجهى ثلاث مرات على غلاف مجلة (النجوم) ، وصارت لى شقة فى (جاردن سيتى) تنهمر عليها مكالمات المعجبين والمعجبات ..

لكن داء (الأماكن المغلقة) لم يتركنى لحظة ..

* * *

— ٢ —

قالت (هيام) :

ـ « كان اسم الداء كما وصفه (مراد) معالجى هو (كلوستروفوبيا) .. وهو مكون من مقطعين (كلوسترو فوبيا) يقولون إن معناها (رُهاب الغرف المغلقة) .. وقد حفظت الاسم بلا عسر لأننى كتبته فى كل أوراقى ، وعلى كل جدار من شقتى ..

أنا مصابة بالـ (كلوستروفوبيا) .. قلتها لأمى فضربت بكفها المفتوحة على صدرها ، وصاحت :

ـ « يا لهوى ! لا تقولى هذا علنًا يا مجنونة وإلا لن يتزوجك أحد !

كنت دومًا أحذرك من الخروج للمدرسة دون إفطار !

* * *

ظهر (عادل) فى حياتى بعد ما عرض فيلمى الثانى ..

تعرفته فى حفل بعيد ميلاد إحدى الصاعدات مثلى..

كان مهذبًا له كل الصفات التى يمكن أن تصف بها رجلاً وسيمًا ، لكنه ـ لا أدرى السبب ـ بدا لى سمجًا

يتظرف نوعًا ، وفى طباعه شىء من طبائع الذبابة ..

كان يلاحقنى دائمًا ، وله طريقة معينة يلتقط بها خيوط أية محادثة تخصنى ، ليتدخل فيها بالإجابة والتعليق كأنما هو مندوبى الصحفىّ أو خطِّيبى مثلاً(*) ..

كان يهيم بى حبًا ، لكن هذه مشكلته لا مشكلتى .. لست مطالبة بأن أحب كل من يحبوننى ، وإلا لقضيت حياتى دون شاغل آخر ..

لكن الفتى صار كابوسًا دائمًا .. ما من حفل أو مكان أرتاده إلا وأجده .. وحتى فى أثناء التصوير فى الاستوديو كنت أجد وجهه السمج يبتسم فى ثقة مشجعًا لى .. ومن نافلة القول أن أقول إنه كان صاحب علاقات عديدة فى الوسط الفنى ، ولم يكن وجوده مستغربًا فى أى مكان .. باختصار : لا مفر منه ..

(*) على سبيل التحذلق : خطيبى لا تنطق إلا مع كسر الخاء وتشديد الطاء !

فى النهاية استسلمت وتركته يحيط إصبعى بخاتمه الذهبى فى حفل خِطبة كان حديث الصحف وقتها ..

* * *

لم أكن سعيدة على الإطلاق ..

المفترض أن تسعد الخطبة أية فتاة ، لكنى لم أعد أية فتاة .. لقد صرت رمزًا كما قلت ، ومن حقى اختيار أى شاب فى أية لحظة يخطر لى هذا ، وعليه أن يرقص فرحًا وفخرًا ..

ما الذى يرغمنى على معرفة هذا المهندس ثقيل الظلّ ؟ إنه لا يعرف سوى الإعجاب بنفسه ، ولا يملك من الأفكار إلا كل ما هو قريب ومطروق وممل ..

وكنت أنا مجرّد ديكور أنيق يجمل به نفسه ..

وجاء الأوان الذى صارحته فيه بأننا لا نصلح لبعضنا ..

كان طفلاً عنيدًا اعتاد الاستحواذ على كل شىء .. لم يطق أن تتخلى عنه دميته الجميلة .. الأطفال يلقون ألعابهم من الشرفة حين يملّونها ، ولم يحدث قط أن ألقت دمية بطفل من الشرفة ..

وكما توقعت توهج الغضب فى عينيه .. غضب وحشى ، وهتف :

- « لا يا (هانم) ! أنا لا يسهل الخلاص منى .. لن يكون ذلك إلا بإرادتى واختيارى ! »

ثم فرد ذراعيه فى دهشة تمثيلية :

- « ثم ماذا يقول أصدقائى عنى ؟ لقد تركته النجمة الكبيرة ، لأنه لا يناسبها ؟ ما هى الصورة التى سيتركها انفصالنا لديهم ؟ »

كنت أرتجف خوفًا ، لكنى قلت فى ثبات :

- « (عادل) .. أنا أتحدث عن مستقبلى ، وليس المستقبل رهنًا بنزوات المجاملة ، وقد أغلقت كلماتك هذه باب الرجعة لو كان هناك واحد ! »

ووضعت الخاتم فى كفه دون كلمة ، عندها ابتسم بخبث ، وقال :

- « باب الرجعة ! إن هناك أبوابًا مغلقة أخرى ! »

* * *

كانت كلماته كنبوءات العرّافين الغامضة ، التى تتضح سطورها فيما بعد .. ولم أفهم هذا إلا فى وقت متأخر جدًا ..

هأنذا أركب سيارتى الجديدة عائدة من الاستوديو بعد انتهاء التصوير .. النصيحة التى يقولونها دومًا للأنثى سائقة السيارة هى :

ـ « انظرى جيدًا تحت المقعد الخلفى قبل أن تقودى .. نصيحة جيدة لكنى نسيتها ..

ها هو ذا من يقول لى : توقفى !

أوقفت السيارة على جانب الطريق ، وأقول فى دهشة :

ـ « (عادل) ! كيف تسللت إلى سيَّ ... ؟ »

وفى اللحظة التالية هوى شىء ثقيل على مؤخرة عنقى ، وساد الظلام ..

* * *

الآن أصحو لأجد نفسى على أريكة قديمة مهترئة .. الغبار فى كل مكان ، غرفة ضيقة تمامًا .. هذا ما استطعت أن أراه على ضوء متراقص لشمعة مثبتة على المسند الخشبى للأريكة ..

أين أنا ؟ ماذا حدث ؟

طبعًا من الواضح أننى مخطوفة .. وخاطفى هو (عادل) طبعًا ..

يا له من أحمق ! يظن أننى بهذا سألين ؟ لعله شاهد فيلم (جامع الفراشات) حين قرر البطل المختل عقليًا أن يحتفظ بحبيبته فى داره مع مجموعة

الفراشات الخاصة به ، والغريب أنها بدأت تميل إليه فى النهاية .. لكن (عادل) أحمق بالتأكيد ..

ستنقلب الدنيا بحثًا عنى ، ولسوف يكون اسمه هو أول اسم فى قوائم الشرطة ، لأن قصة انفصالنا وتهديده على كل لسان ..

ماذا يرمى إليه هذا المدلل ؟

وكان أن وجدت ورقة موضوعة بعناية على الأريكة ، تجيب باختصار على كل أسئلتى ..

رحت أقرؤها فى ضوء الشمعة وأرتجف :

ـ « حبيبتى ..

« ما كنت أتصور أن أعاملك (بهزه) الطريقة يومًا ، لكنك قد أرغمتنى على (هاذا) .. [سأحاول أن أتجاوز عن أخطاء اللغة ما دمتم تعرفون أن (عادل) خالى العقل وجاهل] ..

« حين تطالعين هذا الخطاب ، سأكون فى طريقى إلى (بيروت) لأستجم بعض الوقت ، وهو وقت قد يطول حقًا ..

« هذا البيت يخصّ قريبًا بعيدًا لى ، وهو مغلق منذ أعوام طوال ، لكن قليلين يعرفون أن مفتاحه معى ،

وهو بعيد تمامًا عن العمران .. وبلا جيران على الإطلاق ، وآيل للسقوط بشدّة ..

« ستجدين الكثير من الطعام والمعلبات ، وصنبورًا يمدك بالماء لأنى لا أريد لك أن تموتى جوعًا أو ظمأ ..

« وماذا عن الموت رعبًا ؟

« هذا وارد بالتأكيد .. فقد عرفت جيدًا خوفك من الأماكن المغلقة ، وأنت الآن فى أكثر الأماكن انغلاقًا فى الأرض .. هذه حجرة ضيقة قمت بإحكام غلق بابها ونافذتها الوحيدة ، والبيت كله عتيق متهالك ، لا يمكن المشى فوق لوح خشب دون أن يتهشم إلى نصفين ، ولا يمكن الوثب فى المكان دون أن يتساقط المصيص من السقف على رأسك ..

« لقد تعمدت التأكد من عدم وجود ثعابين أو فئران كى لا أكون قاسيًا ، لكنى سأتركك تستمتعين بحقّ برُهاب الأماكن المغلقة كما تسمينه .. وستطول فترة استمتاعك كثيرًا جدًا ، لأن أحدًا لن يبحث عنك هنا .. سيبحثون عنى ليستجوبونى ، لكن كيف يجدوننى فى (بيروت) ؟!

« سأعود يومًا ، وعندها من يدرى ؟ ربما يكون

كبرياؤك المرضى قد تهاوى بعض الشىء .. ربما يمكننا الكلام عن مستقبل مشترك !

خطيبك (عادل) »

* * *

ما إن قرأت الخطاب ، حتى تلاحقت أنفاسى ، وشعرت بالشعور المعتاد فى هذه المواقف : الاختناق .. الحاجة للهواء التى تدنو من الذعر ..

ونظرت فى هلع إلى الشمعة .. إنها الوحيدة ها هنا .. سيسود الظلام بعد وقت قد يطول أو يقصر ، لكنه آت لا محالة .. وعندها .....

طار قلبى وعقلى شعاعًا ، ورحت أبكى وأصرخ .. أصرخ وأبكى ..

ومن جديد ـ كما فى طفولتى ـ رحت أضرب الجدران مولولة طالبة الغوث .. أنا لم أفعل شيئًا .. لم أفعل شيئًا !

* * *

« دول لازم يتربوا ! »

* * *

لبعض الوقت جننت تمامًا .. رحت أتوسل إلى عمتى كى تطلق سراحى .. أنادى أبى .. أتحاشى فضلات الدجاج على الأرض ، ثم أثوب إلى رشدى .. فأنادى (عادل) ..

وبعد ساعة رقدت منهكة أرتجف ..

كانت الشمعة طويلة لحسن الحظ ، كأنها من شموع الزفاف ، وقدرت أن أمامى ساعة أخرى أنعم فيها بنورها المخيف ..

ساعة .. و ...... ؟

من أشعل هذه الشمعة يا ترى ؟ بالتأكيد (عادل) أشعلها جوارى ، ثم فرّ من المكان قبل أن أفيق ، وأوصد الأبواب بعناية .. هل يعنى هذا أن الوقت كان ضيقًا أمامه فى أثناء عملية حصارى ؟

حملت الشمعة فى يدى، وأمرت نفسى بالتماسك ..

لا تكونى بلهاء يا (هيام) .. يجب أن تخرجى من هنا أو تجدى خطة ما ، قبل أن يتكفل الظلام الدامس بشلّ حركتك نهائيًا ..

كانت الحجرة ضيقة - كما قال - بها نافذة موصدة بعناية ، وقد ثُبت عليها لوحان من الخشب بعدد من

المسامير يفوق الخيال .. لو لم أجد (بنسة) هاهنا لكان هذا السبيل مستحيلاً ..

يوجد باب .. باب عتيق الطراز لا يبدو بهذا التماسك ..

لقد أغلقه (عادل) بقطعة خشب رقيقة واهية .. وكان من الطراز الذى ينفتح للخارج .. يبدو هذا حلاً لا بأس به ..

ونظرت فى الحجرة حولى بحثًا عن جسم خشبى أو ثقيل .. كانت هناك فى طرف الغرفة مكتبة متسخة مغطاة بالغبار ترتفع إلى مترين ، أمامها مقعد خشبى يبدو ثقيلاً إلى حدّ ما ..

قمت بتثبيت الشمعة إلى الأرض.. وانتظرت حتى انتظم وهجها ، وبدأت أتحرك فى رقعة الضوء الخافتة ..

حملت المقعد الخشبى بكثير من جهد ، واتجهت إلى الباب ، و .. بوم ! دوّى الصوت كالانفجار فى الغرفة الضيقة .. وبدأ الخشب يذعن قليلاً .. ضربة ثانية ثم ثالثة ..

توالت الضربات ، وأملى يزداد ..

أخيرًا بدا الباب مترنحًا بانتظار الضربة الأخيرة التى تقهر عناده ، وهى ضربة تحتاج إلى اندفاع .. ربما محاولة بالكتف كما يفعل المخبرون فى السينما حين يقتحمون وكر عصابة ..

تراجعت للوراء وأخذت شهيقًا عميقًا .. و .....

ثم لفت نظرى شىء معين ..

* * *

كان هناك باب وراء المكتبة !

باب ثان بالغرفة حاولت المكتبة أن تداريه لكنها لم تستطع .. ظل إطاره بارزًا إلى جانبها .. وهذا - ببساطة - معناه أن هذا هو الباب الحقيقى ، وإلا فلماذا داراه (عادل) ؟

سؤال جديد : كيف خرج (عادل) من هذه الغرفة ؟ النافذة والباب كلاهما مغلق ومحكم من الداخل ، ولو خرج من باب تداريه المكتبة ، فكيف عادت إلى مكانها بعد رحيله ؟

إجابة منطقية : (عادل) فى مكان ما فى هذه الغرفة ! ربما يتوارى فى مخبأ سرّى أو وراء الأريكة أو .... لابد أنه كذب بصدد السفر إلى (بيروت) ..

وهذا يفسر الشمعة المضاءة بجوارى .. لا بد أنه كره ألا يرى منظرى مذعورة .. درت حول الأريكة فى توجس لأرى ..

ولم أجد الوقت الكافى لأصاب بالذعر للاكتشاف الرهيب ؛ لأن (عادل) وثب بالفعل من وراء الأريكة ، صائحًا :

- « مفاجأة ! »

كان يحمل مطرقة فى يده ......

وهكذا أطلقت صرخة وتراجعت للوراء ، نحو الباب الذى أوشكت على اقتحامه .. وأزمعت أن أحاول الآن ..

لقد جن الفتى .. جن تمامًا .. فى ضوء الشمعة بدا لى كشيطان رجيم يريد تهشيم رأسى ..

اندفع نحوى فتراجعت مبتعدة عن الباب ، وفى اللحظة ذاتها لم يستطع التوقف .. اندفع نحو الباب كثور هائج ، فلم يتحمل الباب هذه الضربة الأخيرة وانفتح للخارج ..

وسمعت صرخة رعب هائلة ، ثم اختفى (عادل) من أمامى ..

ومن حياتى أيضًا ..

* * *



اندفع نحو الباب كثور هائج ، فلم يتحمل الباب هذه الضربة الأخيرة وانفتح للخارج ..

كنت واقفة أرتجف أمام الباب المفتوح ، أرمق الهاوية التى سقط فيها .. لقد كانت شرفة ! شرفة سقطت منذ زمن .. لكن بابها ظلّ هناك ، وكانت على ارتفاع ثلاثة طوابق من الطراز القديم .. أى ما يعادل ستة طوابق من الطراز الحديث !

والهواء قد اصطبغ بلون الغسق المهيب ..

كانت الشرفة تطلّ على فناء فسيح ملئ بالمهملات، وبعض برك الماء الآسن ، ووسط القاذورات وجدت جثة (عادل) وهو يرمق السماء غير مصدّق ما انتهت إليه دعابته ..

وارتجفت فى هلع ..

هذا المصير كان بانتظارى لو حاولت اقتحام الباب المغلق ..

(عادل) كان يتوقع هذا ويتمناه ، وترك لى شركًا متعمدًا هو لوح الخشب الواهى على الباب ، ليغرينى بالمحاولة ، بالطبع بعد ما أعدّ الباب لينفتح للخارج..

كان يلاعبنى كقط يتسلى برؤية محاولات فأر للتملص ..



وحين استطعت أخيرًا أن أزيح المكتبة الثقيلة ، استطعت أن أمدّ يدى إلى مقبض الباب وأفتحه فى حذر ..

أفتحه متوقعة الأسوأ ..

لا شىء سوى درجات تقودنى إلى أسفل .. لقد نجوت ، ولقى (عادل) مصيرًا لم يتوقعه قط .. والأقسى هو أننى لن أبلغ الشرطة كى لا أسبب شوشرة .. المنزل متهالك و (عادل) يملك مفتاحه .. لقد حدث خطأ جسيم يا سيدى .. لقد نسى أن الشرفة لا وجود لها .. هذه الأشياء تحدث ..

من يدرى ؟ لربما انتحر بسبب فشل قصة حبه لممثلة حسناء تُدعى (هيام) .. هل تعرفها ؟ إنها جميلة جدًا .. لكنها لا تجيد التمثيل ..

حقًا ما أخطر ما قد ينتظرنا خلف باب مغلق !

* * *

« دول لازم يتربّوا ! »

* * *



الباب السادس

« أمنية واحدة »

تفتحه مدام : « ناهد »

« تقززت من الفكرة ، لكنى تقززت أكثر من أن ينفتح الباب ، لأجد هذا الشىء المقيت أمامى .. ترى لماذا قبلت المبيت ها هنا ؟ »

- ١ -

الآن يمكن القول إننا فى النهار ..

الضوء الأبيض الساطع النقى يتسرب من كل الستائر ، وتلك الدغدغة فى أذهاننا جميعًا تجعل الرؤية مشوشة والخواطر مضطربة .. وقال (محمود عونى) ناظرًا فى ساعته :

- « لقد قضينا الليل بأكمله ها هنا .. تصوروا هذا ! »

لكن أحدًا لم يتصوَر لأن هذا هو ما حدث فعلاً .. ونهضت متثاقلاً لأفتح نافذة وأنظر إلى الخارج عبر القضبان الحديدية .. سعلت مرتين بسبب الهواءِ النقى الذى لم أعتده من قبل ، ثم عاودت النظر .. حقًا هو منزل منعزل تمامًا ، ناءٍ عن العمران .. ومهما صرخنا منادين لن يسمعنا أحد ..

قلت دون أن ألتفت :

- « لقد دنا موعد خلاصنا .. حتمًا سيحدث شىء فى صالحنا .. »

قال المطرب الولهان بصوته المبحوح :

- « حان وقت سماع قصتك يا د. (رفعت) .. »

- « أفضل الانتظار للنهاية .. إن قصتى رهيبة بحقّ ، وأفضل أن يكون النهار قد أعلن كامل ملكوته حتى لا أتلف أعصابكم .. »

- « إذن هو دور مدام (ناهد) ؟ »

- « لو سمحتَ بهذا .. »

جلست مدام (ناهد) .. وأصلحت وضع شعرها المستعار الخزفى على رأسها ، وكان قد اتخذ كل الأوضاع الممكنة منذ بداية السهرة ، حتى لم يعد شعرًا مستعارًا ، لكن عمامة على رأس (مهراجا) هندى مخبول ..

قالت بعد شهيق عميق :

- « حقًا كانت لى قصة مع باب مغلق .. لا أدرى إن كانت مخيفة .. لكنها بالتأكيد شائقة .. »

* * *

الباب الأول كان يدارى سرًا شيطانيًا لملحن شهير ..

الباب الثانى كان يدارى غريقًا اتضح أنه ليس كذلك ..

الباب الثالث كان سبب فشل جريمة ..

الباب الرابع كان يخفى انتقام شبح من قاتليه ..

الباب الخامس كان شركًا مميتًا ..

أما بابى أنا فكان يختلف كثيرًا جدًا ..

كان هـو تجسـيد كـوابيسى كلهـا .. ولكم تمنيت ألا ينفتح أبدًا ..

* * *

سافر (جابر) إلى مؤتمر علمى فى (اليابان) .. مؤتمر له ذلك الاسم الطويل الذى لا يمكن حفظه على غـرار (المؤتمـر الرابـع عشـر لجراحـات الأنسجة المكونة لعناصر الدمّ ـ ورشة عمل) .. إلخ .

ولما كانت علاقتنا حميمة جدًا ؛ كان الوداع مؤثرًا بحقّ ..

ـ « حان الوقت .. سلام ! »

ـ « حسن .. »

ووضع جواز السفر تحت إبطه ، ولحق بالسائق .. وهو مشهد رأيته عشرات المرات فـى حياتى .. كنت أصرّ على أنـه لا يحب شيئًا فى الكون سوى عملـه وسـوى نفسـه ، بينمـا كـان يـرى أننى لا أحب سـوى المـال والمظهـر الاجتمـاعى .. محـاولة الظهور كـ (ليدى) ، ذلك الداء الذى يصيب زوجات الأطباء الناجحين كثيرًا جدًا ..

أنا لم أطلب شيئًا سوى أن أجده بجانبى .. طيلة حياتى الزوجية كنت أتصرف كأرملة .. أفعل كل شىء وحدى .. أحضر الحفلات وحـدى .. أذهب للأعراس وحدى .. أتعاقد على الهـاتف وحـدى .. أدفـع العوائد وحـدى .. أزور شـقيقاته وحـدى .. أشـترى ثيـابى وحدى ..

فقط حين يظهـر ـ فى الثالثة بعـد منتصف الليل ـ أتذكر أننى متزوجة وأن زوجى حىّ يرزق .. لكن هـذا لا يدوم أكثر من نصف ساعةً بعدهـا يتعالى شخيره ، وفى الغالب يغادر الدار فى السابعة صباحًا وأنا نائمة ، لهذا تعدّ له الخادمة طعام الإفطار ..

والكارثة هى أن كثيرات يحسدننى على هـذا الزوج الناجح ، ويتململن من أزواجهـن الموجودين بكثرة ، ولا يكفون عن العبث فى أصابع أقدامهم على الأريكة ، وهم يتابعون بتوتر مباراة الأهلى الأكثر أهمية لهذا الموسم ..

زوج غير موجود أبدًا .. وزوج موجود دائمًا .. وعلى المرأة أن تختار أحدهما للأسف ..

رفعت سماعة الهاتف وطلبت (نرمين) صديقتى ، وهى أرملة شابة تعيش فى (المقطم) بدورها :

- « (نرمين) .. هل لديك ارتباطات لهذه الليلة ؟ »

دوت ضحكتها الرفيعة الشبيهة بضحكة (عرسة) أصابها سرطان الرئة ، وقالت :

- « لماذا تتحدثين بهذه الصيغة الرسمية ؟ ليست لدىّ ارتباطات طبعًا .. إن بعضهن آتيات لزيارتى لو كان هذا لا يضايقك .. »

- « البتة .. »

وهذه من أوجه الخلاف بينى وبين زوجى ، فأنا اجتماعية كأفراس النهر ، بينما هو متوحّد نوعًا ، وإن كان يقبل الاجتماعيات ، لأنها تتيح له التألق الإعلامى الذى يهواه ..

وهكذا ركبت سيارتى الصغيرة ، وتوجهت إلى منزل (نرمين) ، وهى لا تعيش وحدها لكن لديها طفلين وخادمتين .. وهذا شىء محبب فى مكان منعزل كهذا ..

وفى دارها احتشدت أربع نساء من الشلة ، بعضهن أعرف جيدًا ، وهن جميعًا من نادى (الأرامل

/ المطلقات / المحبطات) الذى انضممت له من زمن .. فى هذا النادى يغدو الرجال شيئًا منسيًا بعيدًا أو مكروهًا كالجحيم ..

كان الكلام تافهًا سطحيًا .. كالعادة ، والدعابات مكررة .. باختصار كانت أمسية رائعة من الطراز الذى يروق لى !

وفى الحادية عشرة مساء فرغنا من العشاء ، وجلسنا على مائدة مستديرة نلعب (الكونكان) ونصغى لغناء (أم كلثوم) ، وكانت هناك امرأتان تدخنان ، رفعت واحدة منهما رأسها للسقف ، وراحت تنفث الدخان فى هيام .. وتغمغم :

- « يا سلام يا ستّ ! »

بعد نصف ساعة ، وقفت (نرمين) وأعلنت أنها تشعر بالملل ، وأن ألعاب الورق لم تعد تروق لها ، ثم قالت وعيناها تلتمعان بالحماس :

- « سأريكن مفاجأة صغيرة ! »

* * *

« اللى شفته .. اللى شفته ..

قبل ما تشوفك عنيّه، عمر ضايع يحسبوه إزاى عليّا ؟

اللى شفته .....

* * *

كلا لم تعُدْ لنا بلوح (ويجا) الذى تستخدمه النساء لتحضير الأرواح ، لو كان هذا ما جال بذهنكم ، وهو تسلية نساء كثيرات من هذه النوعية ..

عادت بشىء ألطف بكثير .. جمجمة آدمية موضوعة فوق وسادة من (الساتان) الأحمر ، وقد وُضعت شمعتان قصيرتان فى مجرى العينين الرهيبين.. ربَاه ! لم يكن منظرًا محببًا بالتأكيد ؛ خاصة مع ضحكة الموت العابثة الساخرة على فم الجمجمة ..

قالت إحدى النسوة ضاحكة :

- « يا ساتر ! هل قررتِ استدعاء العفاريت لقضاء الأمسية ؟ »

نظرت لنا (نرمين) لترى تعبيرات وجوهنا ، التى تباينت بين التقزز والفضول والاستمتاع ، وقالت :

- « إن لهذه الجمجمة شأنًا كبيرًا .. وقد حصلت عليها مقابل مبلغ لا بأس به من المال من ساحر (تنزانى) جاء إلى (القاهرة) منذ أسبوع .. »

انفجرت النسوة مقهقهات ، وسعلت إحداهن كثيرًا ثم قالت بين ضحكاتها :

- « هوهوهوه ! هىهىهى ! أنت أيضًا وقعت فى شرك هذا الساحر ؟ لقد وقعت (نازك) هانم فى شرك مماثل .. إن (القاهرة) تعجُ اليوم بهؤلاء السحرة الأفارقة ؛ وقد تقاضى الرجل منها ألفى جنيه مقابل أن يجعل ..... هىهى ! هوهوهوه ! يحبها ويطلب يدها للزواج .. أنت تعرفين الفراغ الذى تعيش فيه منذ مات زوجها .. وحسبت تلك الشمطاء أن .....

هنا قاطعتها إحدى الجالسات فى استمتاع :

- « يجعل من يطلب يدها ؟ »

قالت فى مكر وهى تنفث دخانها :

- « لن أقول .. البيوت أسرار ! »

- « باللّه عليك قولى يا (سوزى) .. إن هذا خبر الموسم .. »

كانت (سوزى) تتمنى الإلحاح ، وبالطبع كانت ستذكر الاسم :

- « الأستاذ (محمود عونى) ! »

وانفجرت النسوة ضاحكات كما يضحك المعلّمون فى مقهى (بعجر) ، فلم ينقصهن إلا أن يبصقن على الأرض ، ويطلبن المزيد من الشاى (الكشرى) ...

* * *

وهنا قطعت مدام (ناهد) حكايتها ، ونظرت معتذرة إلى الأستاذ (محمود عونى) قائلة :

ـ « معذرة يا أستاذ .. هذا هو ما حدث .. »

لكن فارس الأحلام كان نائمًا ، وقد تدلَّى فكه فى غباء ، وتصاعد منه شخير كفيل بإيقاظ الصمّ .. ابتسمتْ لى ، فقلت لها :

ـ « لا عليك يا سيدتى .. إن الرجل لا يضايقه فى شىء أن تستعين النساء بالسحرة كى يحصلوا على حبه .. لربما كان هذا مصدر فخر له إلى حدّ ما ، حتى ولو كُنّ من طراز (نازك) هانم هذه .. »

قالت مدام (ناهد) :

ـ « إن النساء قد ينجذبن إلى عقل الرجل الناضج أحيانًا .. »

ـ « لكن ليس دائمًا للأسف ! يمكننى أن أؤكد لك هذا ! »

* * *

قالت مدام (ناهد) :

الحقيقة هى أن هذه المجموعةَ من النسوة كن حشدًا من العقول الخاوية التافهة .. لا يثير شغفهن

سوى آخر فضيحة ، ويسيل لعابهن للقيل والقال .. إنهن عاطلات بالوراثة ، ثريات إلى حدّ الاختناق ، وفكرهن أضحل من فكر دجاجة ...

حقًا ! أحيانًا كنت أشعر أننى وسط مجموعة من الدجاج ، لا يكفّ عن الصياح والتضارب بالمناقير ، وبعثرة الأرز ...

أعود لقصتى إذن ....

قالت (نرمين) فى كبرياء وهى تمسك بالجمجمة :

ـ « إن السحرة يختلفون .. هذه الجمجمة هى لساحر (تنزانى) فائق القدرات ، ومن المؤكد أنها تحقق أمنية واحدة لكل من يطلب منها شيئًا .. »

ـ « هذا ما قيل لـ (نازك) بالحرف ! »

ومن جديد دوت الضحكات الساخرة .. هى ى ى ى ى ! .

الآن يحمرّ وجه (نرمين) فى عصبية .. تضع الجمجمةَ على المنضدة المستديرة بينهن .. تأخذ قداحة إحداهن لتشعل بها الشمعتين فى المحجرين .. تقول فى تحدّ سافر :

ـ « دعينا نجربْ ! وسنرى من يضحك أخيرًا ... »

ـ « رهان ؟ »
ـ « رهان ... »
ـ « فلتبدئى أنت يا صغيرة .. اطلبى شيئًا عسيرًا .. مثل .. مثل ... »
وحكت (سوزى) ذقنها المزدوجة بظفرها ، ثم قالت فى خبث :
ـ « اطلبى أن يعود زوجك المرحوم للحياة !! »

* * *

ـ ٢ ـ

لثوان ساد صمت بليغ ، وتلاقت عينا المرأتين فى تحدٍ واضح ، ثم همست (نرمين) بصوت مبحوح :
ـ « ليكن .. سأتمنى هذا الآن ! »
انتصب شعر ساعدىّ ذعرًا ، وصحت .
ـ « لا يا (نرمين) ! لا مزاح فى أمور كهذه .. كله إلا هذا .. »
فى تحدٍ همست دون أن تنظر لى :
ـ « تأخرتِ يا صغيرتى .. أتمنى أن يعود زوجى لى ! »

* * *

نصاب يكسب رزقه من الثريات خاويات العقل ..
هذا هو ساحرها الإفريقى .. حتمًا هو كذلك .
ولكن .. لو كان هذا صوابًا ؛ فلماذا انطفأ النور الكهربى فى اللحظة ذاتها ؟!

* * *

دوّت بعض صرخات ، وشهقت واحدة منهن حينما لم يعد من نور سوى البصيص الأحمر المنبعث من عينى الجمجمة ..

ثم عاد النور الكهربى من جديد .. ومعه ساد جوّ من التوتر .. لقد مات المرح للأبد ، وبدا أن الخوف قد انضمّ لمجلسنا ..

همست إحداهن ويداها ترتجفان :

ـ « أخشى .. أخشى أننا ارتكبنا خطأً جسيمًا .. »

فى ثقة قالت (سوزى) وهى تنهض :

ـ « لا تكونى سريعة التأثر يا (نانى) .. هل تتصورين أن نجىء غدًا لنجد (قاسم) بك جالسًا فى غرفة المعيشة يشاهد التلفزيون ؟

لو كان هذا ممكنًا لطرت فرحًا .. سأتمنى وقتها أن يموت زوجى أنا ! »

وانفجرت ضاحكة لكن أحدًا لم يشاركها المرح ..

وببطء بدأت الموجودات ينسحبن .. كل واحدة منهن تقبل (نرمين) وتشكرها على السهرة اللطيفة ، ثم تهرع بخطا مرتجفة نحو باب الخروج ، كأنما تتنفس الصعداء ...

* * *

وكذا وقفت و (نرمين) نتبادل نظرات صامتة تقول الكثير ..

قالت وهى ترتجف انفعالاً :

ـ « هل ستتركيننى أنت أيضًا ؟ »

كدت أفتح فمى ، لكنها احتضنتنى فى عنف ، وهمست والدموع تخنق صوتها :

ـ « أرجوك لا تذهبى! إننى خائفة .. أموت هلعًا .. »

ـ « لكن ..... »

ـ « إن زوجك مسافر لعدة أيام ، ولا أطفال لك .. ما المشكلة لو أمضيت معى ساعات الليل هذه ؟ سأطلق سراحك فى الصباح .. فقط لا تتركينى فى ساعات جزعى وتوجسى .. »

ماذا أقول ؟ لا شىء طبعًا ..

وهكذا قبلت أن أمضى الليل مع (نرمين) ، والحقيقة هى أننى خفت بدورى أن أعود لبيتى الخالى فى هذه الليلة بالذات .. هى لديها خادمتان وطفلان وبرغم هذا خائفة .. ماذا عنى أنا ؟

* * *

اتجهت (نرمين) إلى المطبخ ، وعادت حاملة

صحفة عليها كوبان من الشـاى لا يدلان على براعة فى التقديم .. ووضعتها أمامى ..

- « أين الخادمتان يا (نرمين) ؟ »

- « فى إجازة .. ألم تلحظى هذا طيلة السهرة ؟ »

- « والطفلان ؟ »

- « نائمان كالملائكة فى غرفتهما .. سنتكلم قليلاً وتحكين لى عن آخر مشاكلك مع زوجك ، ثم تدخل لتنام فى غرفتى .. ولن نتكلم عن السحرة الأفارقة أبدًا إذا كان هذا يروق لك .. »

- « ليس أحبَ لى من هذا .. »

وكذا أمضينا ساعة أو أكثر فى ثرثرة نسائية سخيفة ، ثم نهضت (نرمين) وتمطت وأعلنت أن الوقت قد حان للنوم ..

* * *

كان هذا حين بدأ جرس الباب يدقّ ...

تبادلنا نظرة فزعى .. نظرة أنثيين سمعتا جرسًا بعد منتصف الليل .. وهمستُ فى رعب :

- « جرس الباب ! هل تنتظرين أحدًا ؟ »

مطت شفتها السفلى أن لا ، وأنصتت السمع ..

- « لا بد أنه متشرد قد ...... »

من جديد عاد الجرس يدق بإصرار ، ضاغطًا على أعصابنا بإلحاح وازداد توترنا ..

رأيتها تهرع لتفتح الباب ، دون حيطة ، فصحت بها :

- « توقفى يا حمقاء ! لا بد من أن نعرف القادم أولاً .. »

كان هذا سهلاً .. فالبيت يشبه بيتى .. (فيللا) من طابق واحد ، لها باب رئيسى مزود بعدسة كاشفة ..

أضأت نور المدخل ، ونظرت عبر العدسة ، فلم أر أحدًا .. كان المدخل خاويًا ، فلابد أن من دق الجرس كان يقف جوار الباب الآن حيث لا يُرى بسهولة .. وبالتأكيد لغرض يختلف عن بيع اللبن ..

كانت هناك خرق من قماش ملقاة كيفما اتفق أمام المدخل، لكنى لم أدر سبب وجودها فى تلك اللحظة ..

- « من الطارق ؟ »

سألتنى فى لهفة ، فهززت رأسى :

- « لا أدرى .. لكن بوسعنا تركه حيث هو .. شىء يحدثنى أن فتح الباب حماقة ما بعدها حماقة .. »

دوّى رنين الجرس ثانية ..

ثم جاء صوت الطرقات العنيف المصرّ .. طرقات من يعرف أن له كل الحق فى الدخول هاهنا ..

بوم بوم ! بوم بوم ! ..

ثم صوت رجل ينادى :

- « (نرمين) ! (نرمين) ! »

★ ★ ★

نظرت لوجه (نرمين) آملة أن أجد عدم الفهم على وجهها ، لكنى وجدت وجهها يتبدل ببطء - كما يتحول بطل الفيلم إلى مذعوب فى السينما - ليمرّ بطور من الدهشة ، فالرعب ، فالحيرة ، فالفهم ، ثم بدأت ابتسامة ترتسم على ملامحها ..

ابتسامة هى أقبح ما رأيت فى حياتى ...

- « (قاسم) ! لقد عاد ! »

- « هل تمزحين ؟ »

- « الصوت صوته .. لقد عاد بحق ! »

ومن جديد عاد الطرق والرجل يصيح فى نفاد صبر :

- « (نرمين) ! »

رباه ! وقطع القماش الممزقة أمام الباب !

ورأيتها تهرع إلى الباب ، وتعالج المزلاج فى هستيريا ، وهى لا تكف عن الصياح كأنما جن جنونها :

- « زوجى ! لقد عاد ! ليس معه المفتاح ! الأكفان لا تصلح لتعليق المفاتيح .. هذا طبيعى .. صبرًا يا (قاسم) .. سوف ...... »

- « هل جننتِ ؟ »

وهرعت أمنعها ..

لن يدخل هذا الشىء إلى المكان ، أكان زوجها أم لم يكن .. يجب أن أمنع هذه المجنونة من ... كانت قوية بحق وقد منحتها اللهفة قوة عاتية .. لكنى تشبثت بمعصمها فلما لم أفلح غرست أسنانى بقوة فى لحمه .. صرخَتْ وتراجعَتْ للوراء ، بينما الصوت يتوسل :

- « (نرمييين) ! البرد شديد ها هنا ! »

صاحت فى تنمر وهى تتحسس موضع العضة :

- « هل جننت أيتها الحمقاء ؟ »

- « بل أنت من جُن هنا .. كيف تسمحين لشىء كهذا بدخول دارك ؟



وهرعت أمنعها ..
لن يدخل هذا الشيء إلى المكان ..

لو كان زوجك فهى كارثة ، ولو لم يكن زوجك فالكارثة أعظم .. »

ـ « لكنه (قاسم) .. زوجى ! »

ـ « يا سلام ! ألا تجدين ما يخيف فى كل هذا ؟ »

بدت على وجهها رقة بلهاء ، وهمست بينما الطرقات تتعالى :

ـ « (قاسم) رقيق كالحلم ، ولن يؤذينا .. »

المصيبة هى أننى بدأت أصدق هذا .. كنت واثقة من أن الموتى لا يغادرون قبورهم ، لكن ما هى قدرات السحر الأسود بالضبط ؟ هل يمكن أن ...... ؟

ـ « (نرمين) .. أرجوك لا تفتحى هذا الباب ! »

ـ « أرينى سببًا يمنعنى ! لقد تحققت أمنيتى الوحيدة ! »

ـ « ولكن ...... »

هنا وجهت ركلة لساقى ، ثم كوّرتْ قبضتها ودفنتها فى معدتى ، وعندها وجدت نفسى أتلوى على الأرض ، بينما هى تعالج المزلاج فى صبر ..

ـ « أين وضعت المفتاح ؟ لقد أغلقته بالمفتاح .. سوف .... »

وهرعت تفتش عن مفتاح الباب ، بين كل تلك الأكواخ الخزفية التى يعلقونها جوار الأبواب لتتدلى المفاتيح منها ..

لم تكن أمامى فرصة أخرى سوى .....

ها هى ذى الجمجمة .. مازالت تضحك ضحكة الموت الساخرة ، وبقايا الشمعتين فى المحجرين لن تنته بعد ..

هل يمكن أن ؟

تقززت من الفكرة ، لكننى تقززت أكثر من أن ينفتح الباب لأجد هذا الشىء المقيت أمامى .. لماذا قبلت المبيت ها هنا ؟

ودنوت من الجمجمة ، وأغمضت عينى ، وتمنيت بصوت عال :

ـ « أتمنى أن يرحل هذا الشىء الآن ! »

وانتظرت أن ينطفئ النور ، فقد تعلمت أن هذه هى علامة قبول الأمنية ، لكن شيئًا لم يحدث ..

أغمضت عينى وتمنيت بصوت أعلى .

ـ « أتمنى أن يرحل هذا الشىء الآن ! »

وعندها حدث شىء غريب ..

* * *

انفتح الباب لأجد .. كل النسوة اللاتى كن فى الأمسية يدخلن للمكان ، وكلهن يقهقهن فى مرح مجنون ، ومعهن بواب الفيللا الذى رأيته عند قدومى فى بداية الأمسية ..

والأغرب كان التبدل فى موقف (نرمين) .. لقد استندت بذراعها الأيمن إلى الباب كأنما لا تستطيع الوقوف ، وراحت تهتزّ مرارًا بضحكة مجنونة .. ثم انتصبت مترنحة ، وصاحت :

ـ « هى هى هى ! هل رأيتن ؟ »

ثم أشارت إلى البواب الذى كان يضحك بدوره :

ـ « هذا هو صوت المرحوم زوجى ! »

كنتُ الغباء مجسَّدًا ، لذا قالت (سوزى) وهى تجفف دموعها

ـ دموع الضحك ـ بمنديل :

ـ « معذرة يا (ناهد) .. لقد راهنتنى (نرمين) على أنها قادرة على جعلك تموتين ذعرًا .. قلت لها إنك قوية جريئة ، لكنها أصرّت على هذا .. طلبت مساعدتى ، وأعدّت لك هذه التمثيلية من الجمجمة إلى الطرقات على الباب .. وطبعًا (عباس) هو من أطفأ

النور لحظة التمنى .. لقد بلغ بك الذعر إلى حدّ أن تتوسلى إلى هذه الجمجمة الحمقاء ! »

نظرت لهن غير مصدقة ، وقلت شيئًا على غرار :

ـ « أنتن .. أنتن ..... »

ضربت (نرمين) على كتفى فى مرح ، وهتفت :

ـ « لا تنسى أنك مزقت لحم ساعدى .. هيا يا صغيرتى be a Sport .. (كونى ذات روح رياضية) !»

انتزعتُ يدها فى عصبية ، وهرعت أغادر هذا المنزل المنحوس فى الظلام ..

مزحة ! مزحة قاسية ! من أى حجر قُدَّت هذه القلوب ؟ إمرأة تقحم ذكرى زوجها الراحل فى مزحة كهذه ، ونسوة ظللن ينتظرن فى الظلام كل هذا الوقت كى يتسلّين على حسابى .. وأنا .. أنا الحمقاء التى تم استغلالها عاطفيًا ونفسيًا دون ذنب جنته ...

كنت أقود سيارتى ، أكاد لا أرى شيئًا من الدموع ، وأقول من بين أسنانى :

ـ « حمقاوات ! عشيرة من الدجاج خاوى العقل ! غبيات !

« غبيات ! غبيات ! »

★ ★ ★



الباب السابع

« زنزانة خريولسن »

يفتحه : د. (رفعت إسماعيل)

« لم اعلم وقتها ما يرمى إليه الرجل ، ولم اعلم اننى أول دم أجنبى يدخل هذا الكهف من سبعة أجيال .. »

ـ ١ ـ

انتهت مدام (ناهد) من قصتها ؛ وكان من السهل أن تدرك الأثر الحقيقى لما حدث لها ، من رجفتها ، والدمع الذى بدأ يحتشد فى عينيها ويسيل من أنفها .. إهانة لم تعتدها ولا تجد لها داعيًا ..

قلت وأنا أثنى ساقى تحتى :

ـ « كنت أتوقع هذه النهاية بسهولة .. فعودة الموتى من قبورهم أمر يتعارض مع الدِّين ومع العلم معًا .. والإساءة الحقيقية التى سببتها لك هذه الدعابة هى جعلك تفترضين أن هذا ممكن .. لقد اصطدمت فى حياتى بكثير من التجارب المماثلة ؛ لكن هذا المقياس لا يخيب أبدًا .. ربما قابلتِ مذعوبين ، وربما قابلتِ أشباحًا أو مصاصى دماء ، لكن الموتى لا يعودون من قبورهم أبدًا .. »

ـ « لم يكن ذهنى بهذا الوضوح وقتها .. »

هنا سألنى المطرب الولهان بصوته المبحوح :

ـ « هل لديك بدورك قصة عن باب ؟ »

نظرت حولى .. كان (محمود عونى) نائمًا ، وكذا شاعرتنا الثائرة .. وقد ضايقنى هذا لأنى فقدت اثنين من جمهورى .. لكن ما كنت أملك حماسًا زائدًا يجعلنى أوقظهما ...

قلت بعدما تثاءبت :

ـ « سأحكى لكم أفضلها .. ولكن لاتقا .. آ آ آ آ .. طعونى .. »

* * *

قلت لهم :

الباب الذى أتحدث عنه لم يكن فى مصر ..

لم يكن فى مكان تعرفونه ...

الباب الذى أتحدث عنه لم يكن بابًا خشبيًا أو حديديًا ؛ بل كان أقرب إلى جدار سميك يُهدم ولا يُفتح ...

لكن الناس هناك كانوا يسمونه بابًا ...

* * *

كان هذا فى (إنجلترا) .. فى كهف قرب قرية فى (ويلز) ...

كان الفلاحون يمرّون أمام الكهف ، ويتكلمون عن (خريولسن) الحبيس هناك ، وعن الساحرة التى أنجبته ، والتى أعدمتها محاكم التفتيش ودفنتها ها هنا .. فى ما سموه بـ (زنزانة خريولسن) ...

قالوا إن الساحرة فى لحظة احتراقها قالت :

ـ « سيحل الشؤم بكم سبعة أجيال .. وسيعود ولدى (خريولسن) حين يفتح الباب له رجل من دم أجنبى .. »

كانت هذه هى النبوءة وقد نسيها كثيرون ....

لكن ما لم ينسه أحد هو أن المصائب لم تفارق القرية لحظة ، طيلة تاريخها المديد ..

* * *

وبعد أعوام طويلة جئت إلى الكهف ، لأقف أمامه مع د . (هنرى ليستر) ، وقال لى الرجل كلامًا كثيرًا عن الآثار العتيقة التى وجدها فى هذا الكهف ، والتى تضيف الكثير إلى معلوماتنا عن تاريخ (ويلز) فى القرون الوسطى ...

ناولنى مطرقة ، وطلب منى أن أفتتح هدم هذا الباب الحجرى ، الذى يفصل ثلث الكهف عن ثلثيه ، والذى لم يجرّب أحد عبوره .

ـ « ولماذا أنا ؟ »

ـ « لأنك ضيفنا .. وهذا شرف لنا .. »

وانتشيت فخرًا ، وبدأت أول ضربات أحاول بها تهشيم هذا الجدار .. ولم أعلم وقتها ما يرمى إليه الرجل حقًا ، ولم أعلم أننى أول دم أجنبىّ يدخل هذا الكهف من سبعة أجيال .. ولم ....

* * *

وهنا توقفت عن سرد قصتى ...

لقد سمعنا جميعًا صوتًا غريبًا جمّد الدم فى عروقنا ...

* * *

الخاتمة

« أنا لو أنساكى هافتكر مين ؟

.. من بعد هواكى حياتى أنين »

ـ ١ ـ

لم أجد الوقت الكافى لاستكمال قصتى عن زنزانة (خريولسن) ، والتى أعد القراء بأن أحكيها بالتفصيل يومًا ما ؛ لأن صوت جسم ثقيل يسقط ثقب مسامعنا .. وفتح من كان غافيًا عينيه فى ذعر ، وتساءل :

ـ « ما هذا ؟ »

نهضت مدام (ناهد) ، ونظرت فى حذر إلى الغرف المغلقة ، وقالت :

ـ « الصوت من غرفة المكتب! ثمة شخص هناك ! »

وقفنا متصلبين ؛ عاجزين عن اتخاذ قرار صائب ، وقال المخرج العجوز (أبو النجا) فى توتر :

ـ « فلتر ما هنالك ! »

قلت له وأنا أضغط على معصمه فى رفق :

ـ « لا تنس الاتفاق وما نحن فيه الآن .. ربما كانت هذه وسيلة لجعلنا ننسى الحذر ، ونندفع بحماقة إلى الحجرة .. »

فى ضيق غمغم (محمود عونى) ، وهو يفرك عينيه :

ـ « لقد طالت هذه الدعابة على كل حال ؛ والساعة الآن الثامنة والنصف صباحًا .. لا بد من نهاية ما .. إن هـذا موعد وصـولى إلى الجـريدة ، فأنـا طـائر مبكر .. ولـم أتخل عن هذا ثلاثين عامًا إلا لإجازة قصيرة .. »

ـ « أنا كذلك لدىّ ما أحتاج للعودة إلى دارى من أجله .. بالمناسبة أنا سعيد بكونك تعمل بهذا الحماس صباح الجمعة .. »

ـ « ليست هناك عطلة أسبوعية للصحفى .. »

ـ « لهذا أرى أن الوقت قد حـان كـى نعيد تقييم الموقف ، ولربما قررنا أن نفتح أحد هذه الأبواب بعد كل شىء .. »

* * *

شطائر وشاى من جديد !

لقـد التهمت شـطائرًا وشربت شايًا فى هـذه الليلـة كمـا لن أفعل طيلة حياتى لو عشت ؛ والمشكلة هى أن كل هذا الشاى ألهب معدتى ، وجعلنى أجتاز حالـة (اللانوم ـ لا يقظـة) التى أمقتهـا .. ذهنى مبلبل كمن

يتهيـأ للنـوم ، لكنـه متوتر مشدود كمن فى ذروة يقظتـه .. لا أسـتطيع البقـاء مفتـوح العينين لكنى كذلك ـ لن أنام لو حاولت ..

قلت لهم :

ـ « الموقف الآن بسيط جـدًا .. لقد انتظرنـا لفترة طويلة ، ومـا زال من الممكن أن ننتظر أكثر ، لكن هناك خيارًا آخر هو أن نحشد أعصابنا ونـدخـل .. فى هذه الحالة على كل منـا أن يخمن البـاب الصحيح ، وعليه أن يقدّم أسبابًا مقنعة ... »

قالت (هيام) وهى تطرف بعينيها الحمراوين من فرط السـهاد :

ـ « الأمـر واضـح .. الغـرفة الآمنـة هى غـرفة السـينما .. أكثرنا هـا هنـا فنانـون لهم عـلاقة بفـن السينما ، ولا بد أنه يخبرنا أن الفن هو خلاصنا مما نحن فيه .. »

ـ « ربما كان العكس ! »

قالتهـا (نـاهد) فى ثقـة ؛ وأردفـت وهـى تنظـر لعيوننا .

- « لقد كان زوجى يسخر فى سرّه منكم ، ويكره افتعال وضحالة بعضكم ، ومن الوارد جدًّا أن يضع انتقامه فى هذه الغرفة بالذات .. »

أضفت أنا وقد راق لى كلامها :

- « هذا يبدو معقولاً .. وأضيف أنا أنه لو كان قد قرأ (شكسبير) ؛ فمن المنطقى أن يكون الباب الصحيح هو أقل الأبواب جاذبية وبريقًا .. مثلما حدث مع صورة الحسناء (بورشيا) فى (تاجر البندقية) .. إننى أرشح باب غرفة المكتب .. »

نظرت لى (ناهد) غير فاهمة ، وتقلص وجهها مستنكرةً :

- « أظن أن باب غرفة الجلوس هو الأدنى للصواب .. ما دام يعتقد أنه شهيد الحياة الزوجية مع امرأة مفترسة مثلى .. يريد أن يقول لى : إن النجاة هى فى حياة منزلية مستقرة .. »

قال الأستاذ (محمود عونى) وهو يشعل غليونه ، بعد إفطار حافل :

- « أنا أضمّ صوتى لـ . (رفعت) بصدد غرفة المكتب .. فالرجل مثقف عالم ؛ ولا بد أن هذه الغرفة مقدسة بالنسبة له .

هذا يضع النقاط على الحروف .. »

فى اشمئزاز قالت الشاعرة دون أن تنظر لأحدنا :

- « حمقى هم أنتم .. تمشون لنهايتكم فى إصرار كدراما إغريقية كتبها (سوفوكليس) .. »

- « معروف أننا حمقى .. لكن لماذا هذه المرة ؟! »

دسّت قدميها فى حذائيها ووقفت ، وقالت دون أن تنظر لنا :

- « رقم سبعة .. الرقم المختار .. ألا يشير لشىء ما ؟ »

هنا اتسعت عينا (ناهد) فى فهم .. وارتجفت شفتاها :

- « رباه ! غرفة السينما بها سبعة مقاعد .. أنت محقة يا (نادية) .. إنها لم تنس هذا الرقم ، لأنها دخلت تلك الغرفة مرارًا ، لترى أفلام الهواة التى كان زوجى يصوّرها .. لقد سألته يومها ساخرة عن سبب إصراره على سبعة مقاعد لا أكثر فى هذه الغرفة .. لماذا لم تكن ستة أو ثمانية مقاعد ، فقال لها إن رقم (سبعة) مهم بالنسبة له ... »

هنا فرد (سمير الصياد) يديه كأنما يغنى ، ورفع حاجبيه حائرًا :

- « وهذا معناه الدخول أم عدم الدخول ؟ »

- « ياله من سؤال ! الرجل يتفاءل برقم سبعة .. ندخل طبعًا ! »

قلت لها مفكرًا :

- « بالعكس .. لو فكرتِ بطريقة أخرى لأحجمت عن الدخول .. نحن سبعة ونهايتنا فى غرفة ذات سبعة مقاعد .. رقم (السبعة) يأخذ طابعًا ملحميًا محببًا للنفس .. »

من جديد ابتسمت الشاعرة فى ثقة ، ونهضت إلى مكتبة أنيقة على الجدار تراصت عليها كتب لم تلحظها طبعًا طيلة الأمسية ، وأشارت إلى الكعوب ، وقالت :

- « ثلاث نسخ من كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) الذى كتبه المغامر الشهير (لورانس) الذى لقبوه بـ (لورانس العرب) .. هذه رسالة واضحة جدًّا ؛ ومشكلتكم هى أنكم سطحيون .. لقد اعتادت عيونكم أن تنزلق انزلاقًا فوق الكتب ، بينما تثبت على تفاهات الحياة .. »

وأخذت شهيقًا عميقًا وقالت :

- « الحل يكمن فى غرفة المكتب ! »

قال المخرج الكبير فى سخرية :

- « يا سلام ! بهذا الوضوح ؟! لم لا يكون قد قصد فيلم (لورانس العرب) الذى أخرجه (ديفيدلين) ، والذى قدّم (عمر الشريف) للسينما العالمية ؟ هنا يكون مفهومًا أنه يشير لغرفة السينما ! »

ونهض متأوهًا ، فقد تحولت ساقاه إلى لوحى خشب بعد كل ما جلس خاصة مع داء التهاب العظام المفصلى ..

قلت بدورى بلهجة الحسم .

- « الحق أننا نطيل التفكير أكثر من اللازم .. ربما لم يكن الرجل يقصد شيئًا أصلاً . ربما ليس بهذه الثقافة وخلو البال .. لسنا - بعد كل شىء - فى حلقة من حلقات (هولمز) ، ولا نحن بصدد قصة (الحشرة الذهبية) لـ (إدجار آلان بو) .. ربما كان الأمر أتفه من هذا .. من أية حجرة سمعنا صوت الارتطام ؟ »

قالت مدام (ناهد) مشيرة بأناملها نحو باب من الأبواب .

ـ « من غرفة المكتب .. هنا ! »

ـ « إذن لنتوكل على الله ونفتحها .. لو ظللنا ها هنا إلى يوم الدين فلن نصل إلى قرار ما .. »

* * *

ـ « أنت الأول يا د . (رفعت) ما دمت صاحب الفكرة ! »

وتركونى أتقدم إلى الباب ، وتراجعوا تحسبًا للأسوأ ..

ارتجفت يدى قليلاً .. الحقيقة هى أن الباب اكتسب ثقلاً معنويًا رهيبًا بالنسبة لى ، وشعرت كأننى على وشك فتح بوابة (جانب النجوم) ذاتها .. المقبض يدور .. ريقى يجف .. نبضى يتسارع ..

صوت صرير خافت .. ثم ...

ثم (هيام) تصرخ فى هلع ..

* * *

ـ ٢ ـ

ووثبنا جميعًا للوراء ، بينما ركض الفأر الأبيض الصغير بين سيقاننا .. وكانت صرخة (هيام) شبيهة بامرأة ينتزعون عينها بمسمار صدئ ..

ـ « فأر ! إىىىىىى ! »

صحت في هيستريا :

ـ « صمتًا! »

إن النساء يصرخن دومًا حين يرين فأرًا ، لا بسبب الذعر على ما أظن ، ولكن لأن العادة تحتم أن يصرخن .. وذعرهن يكون مخيفًا أكثر من الفأر نفسه ..

وعدت أنظر عبر فرجة الباب إلى الحجرة ..

* * *

كانت مظلمة هادئة أنيقة ، تضوع برائحة عطر خفيف رجولى ، يمتزج مع رائحة الكتب المحببة امتزاجًا .. مكتب فاخر من طراز (لويس ما .....) .. لا بد أنه أحد (اللويسات) الذين يخيل إليك أنهم لم يفعلوا سوى صناعة الأثاث فى فترات حكمهم ..

الكتب على رفوف جدارية ، أكثرها طبّى طبعًا ..
لمحت هذا فى الضوء الخافت القادم من وراء ستار من القطيفة ..

على الأرض أمام المكتب كان كتابان قد سقطا ، وانفتحت صفحاتهما ، وفى ركن المكان هرع فأر أبيض يتوارى مذعورًا ...

قلت لمدام (ناهد) وأنا أدخل باطمئنان أكثر .

ـ « هذا هو مصدر ما سمعناه .. أحد الفأرين أسقط الكتابين من موضع حرج كانا فيه على حافة المكتب ..»

قالت (هيام) فى اشمئزاز، وهى تواصل النهنهة :

ـ « فئران فى بيتك .. رباه ! كنت أحسبه نظيفًا !»

قلت قبل أن تفترسها (ناهد) .

ـ « فئران بيضاء ! هذا يدلّ على أنه اشتراها خصيصًا ليضعها هنا .. لو كانت الفئران التى تتسلل للبيوت القذرة بيضاء ؛ لبدا لى هذا جميلاً .. »

ـ « وما معنى هذا ؟ »

ـ « لا شىء سوى العبث .. كان يعابثنا ، بالإضافة إلى أن أصوات الفئران فى أثناء حركتها ستملؤنا بالتساؤلات حتمًا .. إنها لعبة أعصاب مختارة بعناية .. »

واتجهت إلى باب غرفة السينما لأفتحه ..

* * *

ولم تكن هناك فئران بالداخل ..

فقط سبعة مقاعد ، وشاشة بيضاء ، وآلة عرض ، ومطفأة تبغ هنا أو هناك ... ولاحظت أن آلة العرض معبأة بفيلم ..

ساد الصمت .. ثم قالت الشاعرة الثائرة :

ـ « يبدو الأمر موحيًا .. يريد منا نحن السبعة أن نجلس ونشاهد هذا الفيلم ، ولا يعلم إلا الله ـ تعالى ـ ما يحويه .. »

دنا المخرج العجوز من آلة العرض ، وعالج زرًا بها ، من ثم بدأت الأرقام المميزة تتوالى على الشاشة ، ثم بدأت الصورة مع الهدير ...

كان هذا هو (جابر) شخصيًا .. على الشاشة .. ومن الواضح أنه قام بتصوير نفسه فى غرفة المكتب ؛ لأن الإضاءة لم تكن على ما يُرام ، ومعظمها من الناحية اليسرى حيث النافذة كما فى لوحات (رمبرانت) ..

ـ « مرحبًا بوصولكم إلى هنا ! »

قالها وهو يبتسم فى خبث ، فتبادلنا النظرات .. هذه بالفعل رسالة واضحة مباشرة لنا.. قال المطرب:

- « إذن كان الأمر ...... »

- « إخرس ! »

- « إخرس ! »

دوت ست عبارات (إخرس) ، فخرس ، ولولا الظلام لقلت إن أذنيه احمرتا خجلاً .. آخر شىء نحتاج إليه هو الاستنتاجات الذكية ..

وعلى الشاشة واصل (جابر) الكلام فى تؤدة :

- « لا أدرى من بقى منكم هنا ليشاهدوا هذا الفيلم ، ولا أدرى إن كنتم وصلتم إلى هنا بالصدفة أم بتفكير منظم .. لكنى أرحب بكم .. فى الواقع خطرلى أن تلميحى إلى رقم (سبعة) سيذكركم بالفن السابع : السينما ، ويقودكم إلى هنا ..

« الآن أعتذر عما سببته من أذى وقلق لكم ...

« لو سارت الأمور كما أتخيل ؛ فلا بد أنكم أمضيتم ليلة سوداء تضربون أخماسًا بأسداس ، وتتساءلون عن انتقامى .. فى الحقيقة هذا هو الانتقام بعينه الذى رتبته لكم ..

« أنا لست إرهابيًا ولا خبيرًا فى تدريب الكواسر والوحوش » أنا رجل مثقف مسالم ، ولا بد من انتقامى أن يكون مثقفًا مسالمًا كهذا ..

« لا باكتريا طاعون .. لا عناكب سامة .. لا ألغام أرضية .. ولا حتى إناء من الزيت المغلى يسقط فوق رأس من يفتح الباب ..

« فقط الخوف من المجهول.. فقط عدم الاطمئنان..

« هذا هو انتقامى .. أما لماذا أنتقم منكم ؟ فقد سمعتم شريط التسجيل ، وهنا أضيف أن المجتمع يعانى من غثاثة وهشاشة وتفاهة لا تصدق .. وما فعلته هو بمثابة صرخة احتجاج أخيرة تقول : أنت تافه بحق أيها المجتمع .. جرب مشاعر القلق مرة واحدة على يدى ....

« والآن أفارقكم دون ضغائن .. وأعرف أننا لن نلتقى ثانية .. إن محامى يملك كل التفاصيل القانونية يا (ناهد) ، ويعرف كيف يستعيد جسدى من الولايات المتحدة ليُدفن فى قريتى : وهو سيرتب لك كل تفاصيل الميراث .. فلا تقلقى .. »

هنا صاحت (هيام) وقد شعرت بأنه ينهى الكلام :

- « لحظة ! أين المخرج من البيت ؟ »

كأنما سمع صيحتها ، ابتسم بخبث على الشاشة وقال :

- « بالمناسبة كدت أنسى أن أخبركم بطريقة الخروج من هنا .. إن الباب الرئيسى مفتوح ، وليس مغلقًا بالمفتاح كما توهمتم !

« والآن وداعًا ! »

* * *

وخرجنا كأطفال أشقياء ، سمحت لهم المعلمة القاسية بالفُسحة نضحك فى بلاهة .. نرمق السماء غير مصدقين .. نضرب أكفنا مصافحين ، وراحت (هيام) تدور حول نفسها وقد فردت ذراعيها ، مئات المرات كأنها (نحلة) مما يلعب بها الصبية .. أما الشاعرة فراحت تسعل معبرة عن سرورها ..

لقد كنا بلهاء بحق ..

هذه إهانة عاتية ، جعلت منا الغباء مجسدًا .. ولن ينسى أحدنا أبدًا هذه الصفعة الوهمية على خدّه ، كلما فكر فى ذكائه وبراعته ..

لكن كل شىء انتهى على ما يُرام ..

* * *

وبعد أسبوعين توفى د . (جابر) فى مستشفى بـ (منيسوتا) ..

تفرقنا وتباينت مصائرنا ، لكن كلاً منا لم ينس قط هذه اللحظة الإنسانية الحميمة التى وحَدت بيننا ، وشعوره بأن الآخرين لم يكونوا بهذا السوء ..

ربما تستطيع أن تحبهم بشىء من الجهد لو أردت ...

* * *

كانت هذه حلقة الرعب الرابعة ....

تُرى هل أخبركم الآن بمحتوى حلقة الرعب الخامسة ؟ »

بالطبع لا .. هل تعرفون لماذا ؟

لأن هذه حلقة أخرى .

د . / رفعت إسماعيل

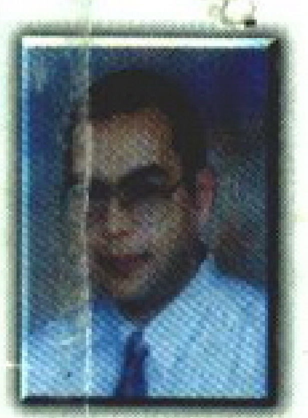
القاهرة



ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب



د. أحمد خالد توفيق

وراء الباب المغلق

ماذا ينتظرنا خلف الباب المغلق ؟ ماذا لو مددنا أيدينا المرتجفه إلى المقبض ؟ ماذا لو سمحنا لفضولنا بأن يرتوى ؟ هل نعود أحياء ؟ هل تبقى بحلوقنا قوة تسمح لنا أن نحكى ماحدث ؟ هل تظل لدينا حلوق أصلاً ..



الثمن في م...
وما يعادله بال...
في سائر ال... العالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم :
أسطورة فرانكنشتاين